الشرفة

مدوّنةُ الحرب

(٤)

رئيس مجلس الإدارة
الدكتورة لبانة مشوِّح
وزيرة الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول
د. ثائر زين الدين
المدير العام للهيئة العامّة السوريّة للكتاب

رئيس التحرير
د. غسان السيّد

الإشراف الطباعي
أنس الحسن

لوحة الغلاف
للفنان: فرانز مارك

سليم عبود

الشرفة

روايـة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢١م

-٣-

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(بالضرورةِ)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

الشرفة: الرواية/ سليم عبود .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢١.- ٢٨٨ص؛ ٢٠سم.- (سلسلة مدونة الحرب؛ ٤).

١- ٨١٣.٠٣ ع ب و ش ٢- ٨١٣.٠٠٩٥٦١ ع ب و ش
٣- العنوان ٤- عبود

مكتبة الأسد

- ١ -

عادة...

بعد أن تعود شذا من عملها في هيئة الاتصالات إلى البيت في حي«المزة ٨٦» بدمشق، تتناول طعام الغداء، وتنهي بعض الأعمال المنزلية، وتأتي إليّ في غرفة نومنا الصغيرة، ومعها كوبان من الشاي بالنعناع، وتجلس إلى جواري على كرسي من الخيزران، وتقصّ عليّ حكاية يومها في الهيئة، وأموراً تتعلق بأولادنا، وهي ترشف بين الحين والحين رشفة من كأسها.

أحياناً، تتلمس يدي بهدوء في نوع من المداعبة، وأنا أكتب، وكأنها تبحث في كفي عن تفاصيل وخطوط مرئية أو غير مرئية كما تفعل العرّافة. تشعرني تلك الحركة بهدوء داخلي، وبعمق العلاقة العاطفية بيننا.

أحياناً، تمسك بأصابعي، وتقول بهدوء: «أحب انسياب أصابعك كأصابع رسام أو موسيقي، أعرف. لديك إحساس

موسيقي، لهذا لا أستغرب وجود موهبة الموسيقا عند ولدينا مجد وريم».

تحدثني وأنا أكتب، وفي الوقت نفسه، تتابع ما أكتبه، وعندما أستغرق في الكتابة طويلاً، وأنسى تناول كأس الشاي، تهمس: «علاء، برد الشاي».

في ظني، لم تكن كأس الشاي هو ما يشغلها، تريدني أن أشعرها بوجودها إلى جانبي ولو بكلمة، أو بسؤال أو التوقف عند أحد تفاصيل حكاية يومها والسؤال عن هذا التفصيل، وهذا يضطرني إلى التوقف عن الكتابة، فأحمل كأسي، وأرشف رشفة طويلة، وأعلن عن روعة الشاي، وروعة من أعدّتْه.

تبتسم: «صحة»؟

ينام رأسها على كتفي: «علاء، أنت تعني لي كل هذا العالم».

«وأنت».

كانت تسير حياتنا على وتيرة واحدة، كقطار يتحرك يومياً على خط واحد من محطة البداية إلى محطة النهاية، ويعاود في اليوم الثاني رحلته من جديد.

في أيام الدوام الرسمي، نستيقظ في حوالي السادسة صباحاً، معاً، أو تسبقني في الاستيقاظ، تنادي على الأولاد «استيقظوا»، وتلقي عليهم نصائحها وتعليماتها اليومية، وتنهي ذلك بالدعاء إلى الله أن يوفقهم ويحميهم من كل أذى، في الساعة السابعة صباحاً، نغادر معاً إلى موقف الباص قرب خزان المياه الذي يتوسط حي المزة ٨٦.

وهناك، نفترق، فأنا أركب الباص إلى عملي بوزارة الاقتصاد، وتتجه هي سيراً إلى هيئة الاتصالات على أوتوستراد المزة، وفي نهاية الدوام، نلتقي في البيت، لنبدأ الرحلة نفسها في كل يوم.

في أيام العطل، يروق لنا التأخر في النوم إلى الثامنة والنصف صباحاً. وفي الأيام الباردة أو الماطرة، نشرب القهوة في غرفة نومنا، وفي الأيام الدافئة والمشمسة، نخرج إلى الشرفة لتناول القهوة، ونتأمل المدينة، ونتحدث عن الأولاد، وأحياناً، تأتينا جارتنا أم عسّاف، وتقول لتسويغ مجيئها: «رأيتكما في الشرفة، فأحببت أن أشرب القهوة معكما». وتضحك، «أرجو ألا أكون قد قطعت عليكما خلوتكما».

تنهرها شذا: «أم عسّاف، أي خلوة؟ وأي جلسة؟ كبرنا».

تهزّ أم عساف رأسها، وتضحك، «أعرف، أردت المزاح معكما».

عندما تزورنا أم عساف، نضطر إلى وضع كرسي ثالث في الشرفة، وتبدأ أم عسّاف بتقديم أخبار الحي كما تفعل مذيعات الفضائية في برنامج منوعات، وبانسيابية مشابهة، لكن بمقدمات أكثر تشويقاً.

تعرف أم عسّاف الكبيرة والصغيرة من أخبار الحي، من غادر، ومن يفكر بالمغادرة، ومن تزوج ومن مرض، ومن تسّلم عملاً وظيفياً، ومن تحسنت أحواله، ومن لم تتحسن، ومن تعرّض لمرض وذهب إلى المشفى.

اتسعت دائرة حكاياتها، بعد أن أصبحت تاجرة ملابس (مستعملة)، لتشمل أخبارها وحكاياتها الأحياء المجاورة، ومع اتساع أعمالها في بيع الملابس المستعملة، راحت تتحدث في الشأن الاقتصادي وارتفاع الدولار، وانخفاض قيمة الليرة، وتذبذب أسعار الملابس المستعملة، وأنواعها ومصادرها، وعن دوريات الجمارك والتموين على المحلات التجارية، وتعلن تأففها منهم: «أخي علاء، هؤلاء لا يذهبون إلى أحياء الأغنياء والمتاجر الكبيرة».

وفي اللحظة التي تنتهي فيها من شرب قهوتها، تقف لتغادر: «أنتم أهلي في هذا الحي، وأتمنى البقاء معكم، لكنه العمل».

- ٢ -

بيتنا صغير مكون من طابق واحد، يضمُّ عدة غرف صغيرة ومطبخاً صغيراً وحماماً عادياً، وبعد مرر أكثر من ثلاثين عاماً على وجودنا فيه، إلى الآن لا يوجد في حمامه سخّان للمياه، عندما نريد أن نستحم، نضطر إلى تسخين ماء الاستحمام على موقد غاز برأس واحد. في كل عام نحلم بشراء سخان كهربائي، وترتيب الحمام على الأقل «بيكادوش»، ولكن لا يتوافر لنا المبلغ لأننا، نرى أنفسنا أمام التزامات أكثر أهمية في البيت وفي تأمين متطلبات الأولاد، وكما تقول أم عساف: «من يتزوج فقيراً، يظل فقيراً».

تحب شذا الاستراحة والجلوس الطويل في غرفة نومنا أكثر من أي مكان في المنزل، أمازحها: «أتحبينها لأنها عش عشقنا»؟

تبتسم: «أليست كل ذكرياتنا الجميلة فيها»؟

وعندما أسألها إن كانت سعيدة، تنهض عن كرسيها، وتتلمس رأسي: «أنا سعيدة».

وتتجه إلى السرير المجاور، وتقول: «سأتمدد قربك على السرير، وأنت تكتب». وسرعان ما تغمض عينيها، وتغطّ في نوم عميق.

في الواقع، غرفة نومنا صغيرة جداً، ومتواضعة جداً، وعلى الرغم من ذلك لا تناقش شذا مسألة أثاثها، وتردد «العصافير العاشقة لا يهمها من أي قش هو عشها، المهم أن يظل لدينا دفء الحب».

تتسع غرفة نومنا لسرير مزدوج وخزانة من الخشب ذات ثلاثة أبواب. على الباب الأوسط مرآة بطول متر وربع، تقشّرت أطرافها، وعلى الزوايا، وإلى جانب السرير من جهة الرأس، ثمة مشجب من النيكل له ثلاثة قوائم وثلاثة رؤوس، معلّق عليه معطف رجالي أسود اللون، وشال من الصوف، وقبّعة من الشاموا ذات لون رمادي، وعلى أحد رؤوس المشجب (روب) نسائي طويل أبيض اللون من قماش قطني سميك له زنّار عريض، يطوّق الخصر، وعلى صدر (الروب) ثمة زهرات ذات لون زهري قامت شذا بتطريزها على شكل قلوب صغيرة.

أذكر أننا اشتريناه قبل أكثر من خمسة وعشرين عاماً، لم يكن قد ولد ابننا البكر يوسف... كانت شذا تحب ارتداءه، في صباحات

أيام العطل والأعياد، عندما ترتديه، ترش حول عنقها عطراً خفيفاً، وتأتي إليّ تحمل فنجانا قهوة في صينية صغيرة.

«صباح القهوة».

وتضحك من قلبها ورأسها قريب من رأسي، فتمتد ذراعاي إلى الوراء، وأطوّقها من رأسها.

مرة، التقطت لنا صورة مشتركة بآلة تصوير عادية، لم تكن آلات التصوير الرقمية معروفة، وضعت شذا الصورة داخل إطار ذهبي اللون، واختارت لها مكاناً فوق سريرنا من جهة الرأس. كانت سعيدة بالصورة، وترى أنها استطاعت أن تمسك بالزمن قبل أن ترسم الأيام الصعبة على وجوهنا متاعبها...

كلما تأملت هذه الصورة منذ عشرين عاماً أو أكثر، أشعر أن الزمن مشى سريعاً، ورسم خطواته القاسية على وجوهنا. كل شيء تغيّر، وبت أشبه أبي في ملامحه بعد أن كبر في العمر.

مرة، وجدت شذا تبكي وهي تتأمل الصورة، لم أسألها لماذا تبكي، لأنني عشت الحالة نفسها من الحزن أكثر من مرة، هو الزمن يعتصر مرّ سنواته ليس على الوجه وحسب وإنما في عمق الروح.

منذ سنوات قليلة...

توقفت شذا عن ارتداء (الروب)، وبالتحديد، بعد أن أنجبت «يوسف ومجد». أذكر بالتحديد، آخر مرة لبست فيها (الروب)، كان ذلك بعد ولادة ريم مباشرة، ومنذ ذلك الوقت، بقي (الروب) معلقاً إلى المشجب، لم أسألها عن سر بقائه معلقاً، ولماذا تحتفظ به أو لماذا لم تقم بارتدائه، لم يكن ذلك بالنسبة إلي أمراً مهماً. اعدّدت الأمر عادياً. كل شيء في حياتنا يبدو لي ولها عادياً، حتى إننا أحببنا هذه الرتابة التي تسير فيها حياتنا، وعددناها أمراً إيجابياً وتعبيراً عن استقرار حياتنا الزوجية.

في صباح كل يوم عطلة، وبالتحديد، في أيام الصحو والطقس الجميل، نشرب القهوة في الشرفة، ونتأمل المدينة، ونتحدث عن حياتنا، لم تكن قسوة الحياة تهمنا، المهم أن نظل بخير، وأن يكون أولادنا بخير وموفقين في دراستهم، تقول شذا دائماً إن أفضل استثمار للمستقبل هو الاستثمار في الأبناء عبر نجاحهم في دراستهم، العلم هو الضمانة لهم ولنا وليس ما نوفره من مال».

في هذا الصباح الربيعي من شهر آذار لعام ٢٠١١، وبالتحديد في اليوم الأول من آذار، ثمة ضباب رمادي شفاف كثوب نوم نسائي يغلّف مدخل دمشق الغربي، ويتجه نحو الشرق، ليغمر ساحة الأمويين ومبنى وزارة الدفاع، ويدخل شارع الثورة سريعاً، لا أعرف كيف خطر لي أن أسأل شذا: «لماذا لا ترتدين هذا (الروب) المتروك على المشجب؟ هل تذكرين تلك الأيام التي كنت ترتدينه فيها؟ كنت تبدين كأميرة من أميرات ألف ليلة وليلة»؟!

وضعت فنجان قهوتها على سطح جدار الشرفة الواطئ، ونظرت إليّ نظرة طويلة، أدركت أن سؤالي أزعجها، بمرور الزمن، بت أقرأ ردود فعلها المفرحة والمحزنة في نظراتها وفي تقطيبة جبينها، لهذا، تجنبت النظر إليها وبقيت صامتاً. عادت وأمسكت بفنجان قهوتها. أخذت منه رشفة سريعة، وأعادته ثانية إلى مكانه في حركة عصبية، هي عادةً... هادئة جداً، وتردّ على أسئلتي بهدوء.

أردت تغيير الموقف، قلت: «أشعر بالبرد قليلاً، ما رأيك أن ندخل إلى غرفتنا». وأنا أهم بمغادرة الشرفة، سألت: «أيقلقك بقاء (الروب) في مكانه»؟

استغربت صيغة السؤال. ابتسمت لها لأشعرها أن سؤالي عادي ولا أقصد به شيئاً، وقلت: «لا. أبداً، مجرد سؤال خطر في بالي».

بطبعي، لا أحب الدخول في خصوصيات تتعلق بمزاجها الذي بات متبدلاً جداً في الآونة الأخيرة، كان موضوع علاقة ابننا مجد الذي تخرّج في كلية الطب هذا العام واتجه إلى الاختصاص مع ابنة زهير المكتبي يزعجها، كانت نصحته مرات بالابتعاد عنها لأنها تعرف فساد أبيها وفساد والد أمها.

ومما زاد في تعكير مزاجها إلحاح ابننا يوسف على مغادرة البلد إلى الخارج للدراسة، ومن أهم الأسباب التي أدت إلى هذا الانقلاب السريع في مزاجها اشتعال الحرب في الخامس عشر من آذار لعام ٢٠١١، وبدء سقوط القذائف على الحي، ووقوع تفجيرات يقوم بها انتحاريون في قلب دمشق.

راحت المشاهد الدموية التي يعرضها التلفاز بعد كل تفجير، ومشاهد الدمار في مراكز المدن تصيب شذا بنوبات تشنج عصبية.

عادت تسألني: «لم تخبرني إن كان عدم ارتدائي (للروب) يقلقك»؟!

قلت: «هو سؤال طارئ، ما الذي أزعجك، أنا أعتذر».

تعلن النشرة الإخبارية في التلفاز عن سقوط قتلى وجرحى ليلاً بحي المزة ٨٦، وأن النار اشتعلت في عدد من المنازل والمتاجر والسيارات، وأن سيارات الإطفاء والإسعاف تأخرت في الوصول إلى المكان بسبب القصف.

احتضنت رأس شذا: «أرجوك لا تحزني، أنا أمازحك» لا أدري لماذا يزعجني حزنها بهذه القوة، أهو حبي لها، أم هو حالة من العطف؟!

أذكر لقاءنا الأول، منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها، شعرت نحوها بالعطف لسبب لا أعرفه، أكان هذا العطف هو المقدمة للحب بيننا؟!، عليّ أن أقول كما تقول شذا عن هذا الحب وعن لقائنا في أول يوم لنا في الجامعة وفي هذه المدينة «إنه القدر»، وأحياناً، أسمّي كل ما حدث بالمصادفة، وتقول شذا في تسويغ قولي «المصادفة هي القدر غير المتوقع الذي يأتي فجأة، ولأننا نجهل أسباب حدوثه، نطلق عليه المصادفة، المهم أن كل الطرق تؤدي إلى روما».

يومذاك، رأيتها تقف في آخر الرتل أمام كوة التسجيل في الجامعة، كنت أقف في أول الرتل إلى القرب من كوة التسجيل، وجدت نفسي بطريقة لا إرادية، أناديها لأعطيها مكاني، حدث ذلك وانتهى الأمر، ولم يبق الحدث في ذاكرتي، عددتُ ذلك شهامة مني، وهي لم تشكرني على موقفي، وهذا أيضاً لم يكن يشغلني.

في اليوم الأول لنا في الجامعة، كنت أقف في مدخل الكلية أنتظر مجيء ريتا.

لم أكن أعرف «ريتا» قبل البارحة...

تدبّر لي خالي سكناً في المدينة الجامعية بمساعدة رجل مهم كما أخبرني، ونحن في قلب المدينة، بالقرب من وزارة الاقتصاد أخبرني خالي أن علينا زيارة الرجل المهم الذي ساعدنا لشكره.

نهض الرجل من وراء مكتبه مرحّباً بنا، وشعرت أن العلاقة بينه وبين خالي عميقة، بدا الرجل طويل القامة، أشيب الشعر... يقترب من الخامسة والأربعين... يتكلم بهدوء، ويردّ على الهواتف بدبلوماسية عالية، على طاولته، أجهزة هاتفية عدة بلون رمادي تتشابه في الشكل أيضاً.

تتجول نظراتي في المكتب الأنيق الواسع.

بدت جدران المكتب من خشب الزان المعشّق جميلة ذات لون عسلي، وثمة مكتبة عريضة تضم بعض الكتب، وفي وسطها صورة له مع بعض الشخصيات التي يتكرر ظهورها على التلفاز، بدت الصورة داخل إطار ينسجم مع الخزانة الخشبية كأنها جزء منها... وفي نهاية المكتب، ثمة طاولة اجتماعات خشبية طويلة مغطاة بغطاء من مخمل خمري اللون وحولها عدد من الكراسي الأنيقة، ولفت انتباهي وجود فتاة، تجلس خلف الطاولة، وتتصفح مجلة، عندما التقت نظراتنا، تفتّحت شفتاها بابتسامة خفيفة، وأغمضت عينيها بغنج أنثوي، يشبه وجهها إلى حد ما يشبه وجه «سلمى»، لكنه بدا أكثر بياضاً من وجه سلمى، ذات شعر أشقر طويل، يحيط بعنقها كالقوس. قال الرجل: «إنها ابنتي ريتا، التحقت بكلية الإعلام هذا العام».

أخبره خالي أنني سأدرس الإعلام أيضاً وأهوى كتابة الأدب، وأنشر في الصحف، وكان رأي أبي أن أدخل الكلية العسكرية، وخالي قال له قولاً حاسماً: «علاء سيدرس الإعلام. قال الرجل: «هذا خبر مفرح، ونادى على ابنته «ريتا». وأخبرها أنني سأكون زميلها في الكلية.

وقال لي: «اذهب إليها واجلسا معاً، وتعارفا».

جلسنا متقابلين حول الطاولة، بدا وجهها لطيفاً، لم تكن خجولة، وراحت تتحدث عن سعادتها بالتعرف إلى زميل لها في الكلية، حدثتني عن عشقها للبحر ولحياة الصيادين والسباحة وركوب الزوارق البحرية وأنها في كل صيف تذهب إلى (شاليه) في طرطوس تملكها أمها وتمضي فيها أياماً طويلة، قلت: «في هذا العام ستأتين إلى شاطئ اللاذقية».ابتسمت (أعتقد ذلك).

أحببت شفتيها، ممتلئتان وسمراوان كحبتي ثمرة عنّاب... ترتدي بنطال «جينز»، وبلوزة بيضاء، شفافة تظهر لون حمّالة صدرها، وتبرز نهدين نافرين، ظلت نظرات ريتا على وجهي وهي تحدثني، أربكتني نظراتها، سألتني: «هل أنت صامت دائماً؟!».

قلت: «أستمع إلى حديثك الشيّق».

وأنا أغادر مكتب «منذر الفخراني» كما قرأت اسمه المكتوب بخط كوفي على لوحة أنيقة موضوعة على طاولته، قالت ريتا:

«علاء، غداً نلتقي في التاسعة والنصف صباحاً عند مدخل الكلية».

أخبرني خالي أنه قرأ في نظرات ريتا ارتياحها لي:

«علاء، ستكون محظوظاً لو حظيت بإعجابها، الحياة فرصة... الأمر يحتاج منك إلى بعض الجرأة، الفتاة أي فتاة بطبعها تحب الشاب الجريء، زواجك منها سينقلك من الجحيم الذي تعيشه، إلى النعيم، ماذا لو لم يتزوج والدها منذر بزوجته فاتن؟!، بالتأكيد كان الآن مرميّاً في مكتب عادي فيه كرسي وطاولة حديدية صدئة، الحياة فرصة، هل تفهم؟ نعم الحياة فرصة، والذكي هو من يمسك بالفرصة قبل أن تفلت منه، د. منذر أمسك بالفرصة، هو في الأصل شاب فقير، درس في كلية الاقتصاد بجامعة دمشق، وتخرّج فيها، تعرّف خلال عمله على تاجر دمشقي وعلى زوجته فاتن، لقي الزوج حتفه في حادث طائرة في طريق عودته من مطار كوانزو في الصين إلى دمشق، فتزوج منذر الفخراني بفاتن، وبين ليلة وضحاها بات «الدكتور منذر»، وارتقى سريعاً في سلّم العمل الوظيفي، وأنجب منها ابنة وحيدة هي ريتا.

لم أشعر أن كلام خالي مهمٌ، وفي الأساس أنا لا أرتاح له ولا لكلامه وآرائه، ربما لأن أبي يصفه بالانتهازي والفاسد.

على الرغم من ذلك، شعرت بالارتياح لريتا، ليس لأنها ستكون لي نافذة للسعادة كما يقول خالي، أبداً، هو أمر لم أفكر به، عددتُ أن وجودها في الكلية معي أمر جيد، ستكون أنيساً لي في هذه المدينة.

في صباح اليوم الأول لي في الجامعة، وقفت في باب الكلية انتظر ريتا كما اتفقنا.

يمرّ الوقت، وتقترب الساعة من العاشرة، وحرارة الشمس تنصب على رأسي قوية، رحت أمسح عرقي النازف من وجهي بطرف كم قميصي الأبيض الذي تبلل بالعرق عند الصدر والظهر... أتلهى بمتابعة حركة الشارع المزدحم بالطلبة والسيارات والناس، تمنيت أن أعرف واحداً من المارة، أصابني إحساس بالاكتئاب، قلت «ليتني دخلت جامعة تشرين كما فعلت سلمى... هي قالت لي: «ابق هنا، هذا أفضل لك، نذهب معاً إلى الجامعة ونعود معاً، ونعيش حياة جميلة كعاشقين وحبيبين... تركت رأسها على صدري وبكت: لن أستطيع تحمّل ابتعادك عني»، وعلى الرغم من وجودنا على الشاطئ، وثمة رجال ونساء يمرون، احتضنتني وقبلتني، ولمعت دمعة انحدرت من عينيها تحت ضوء الشمس،

وقالت إنها مستعدة أن تذهب معي إلى آخر الدنيا وأن تعمل في البيوت. المهم أن نظلّ معاً.

«صباح الخير»، ثمة صوت نسائي، التفتُّ نحو الصوت، فرأيتها تقف قبالتي تماماً، كانت عيناها سوداوين، وبدت أسنانها بيضاء وهي تبتسم، تمدّ يدها لمصافحتي، لا أذكر أنني رأيتها من قبل... أهي تعرفني؟ ولماذا تسلّم عليّ وتريد مصافحتي؟ كانت ترتدي بلوزة بيضاء لها «تطريزة» على الصدر من جهة اليسار وبنطالاً من جينز أزرق، بدا البنطال قديماً بعض الشيء، ولكنه جميل وهو يحتضن ساقين رشيقتين. متوسطة الطول لا طويلة ولا قصيرة، يميل جسدها إلى النحول قليلاً، وحذاؤها رمادي اللون له كعب متوسط الارتفاع، لم يلمّع منذ وقت طويل، حوافه مقشّرة من الأمام، لم تكن قدماها كبيرتين ولا صغيرتين، فاح عطرها خفيفاً كرائحة القرنفل البلدي.

تأملت أصابعها وهي تصافحني، بدت أصابعها سمراء طويلة ومدببة قليلاً بأظافر مقصوفة، في معصمها ساعة يد صغيرة ذات إطار فضي، ساعة عادية من الساعات الصينية الرخيصة

كساعتي التي أهداها لي خالي «نسيم» بمناسبة نجاحي في الثانوية العامة. لم يكن عليّ أن أشكر خالي يومذاك على هديته وحسب، وإنما كان عليّ أن أقتنع أنها ساعة جيدة، وأنه أحضرها لأجلي من لبنان. عندما قلت: لأمي إن زميلي اشترى أختها بخمسمئة ليرة من تاجر يبيع على البسطة، غضبت، وقالت: «ماذا أهداك أهل أبيك أو عمتك فاطمة»؟

سألتني بلطف شديد: «هل تذكرتني»؟

«لا».

«سأذكّرك، أتذكر يوم كنت تقدّم أوراقك للتسجيل في الكلية، كنت أنت تقف في أول الصف أمام الكوة مباشرة، وأنا في آخر الصف، وحرارة الشمس تسقط على رؤوسنا كالرصاص، ناديتني، وتبادلنا الأمكنة، لم أشكرك يومذاك، وبقيّ الندم يزعجني، عندما رأيتك اليوم عرفتك، قلت: سأسلم وأشكرك، هل تذكرتني»؟!

وقدّمت لي اسمها «شذا عز الدين».

قلت: «نعم، تذكرتك، وكنت ترتدين اللباس نفسه، وكنت تضعين في شعرك شريطة بيضاء».

«صحيح».

احمرّ وجهها حياء «هي تفاصيل صغيرة، ذاكرتك قوية».

رأيت ريتا تقفز من الرصيف الآخر، وعندما وصلت سألتني:

«من الفتاة»؟!

أخبرتها أنها شذا ابنة عمتي، ستكون معنا في الكلية، بدا على شذا الارتباك والمفاجأة، نظرت إليّ وابتسمت، ولأخرجها من ارتباكها، قلت: «نحن تربينا معاً منذ الصغر، وكانت هوايتنا واحدة وهي الاهتمام بالأدب، فاتجهنا إلى الإعلام. أخبرتنا ريتا أنها سعيدة بالتعرف علينا، وأخبرت شذا أنني منذ البارحة اتفقت معها على هذا اللقاء، واعتذرت عن تأخرها على موعدنا، وأن السبب زحمة المرور واقترحت أن نتناول عصير البرتقال في هذا الجو الحار قبل التوجه إلى الكلية».

اتجهنا إلى محل عصير برتقال. شربنا العصير. حاولت أن أدفع، لكن ريتا رفضت وقالت: «لن نتشاجر على من سيدفع، منذ الآن أنا من سيدفع دائماً، أنتما ضيفاي طوال وجودنا في هذه الكلية».

في المدرّج، جلست بين شذا وريتا، بدت شذا شديدة الهدوء، ومتزنة في حوارها معي أو مع ريتا، وهذا مما دفع بريتا أن تقول إن ابنة عمتك شديدة التهذيب، في حين كنت أقرأ حالة من الارتباك في عيني شذا، لهذا بعد انتهاء المحاضرة، قالت لي «علاء، سأظل إلى جانبك دائماً في المدرج وخارجه فأنا لا أعرف أحداً هنا، هل يزعجك ذلك»؟!

«لا، ألست ابنة عمتي»؟!

ضحكت «صحيح، كيف خطر لك أن تقول ذلك، فاجأتني كثيراً».

قلت: «وأنا تفاجأت من حالي كيف حدث ذلك لا أدري، منذ الآن أنت ابنة عمتي».

وقفنا في الردهة المؤدية إلى المقصف...

بدت شذا أكثر طولاً، نحيلة الخصر، في عينيها السوداوين بريق. ارتبكت عندما التقت نظراتنا. انخفضت نظراتي إلى الأرض. تذكرت خالي ونحن نغادر مكتب منذر الفخراني، قال لي بلهجته التي تجمع بين الجد والسخرية: «علاء، لا تكن خجولاً، الوضع

هنا مختلف عن الوضع في مدينتنا الساحلية، الخجول هنا تلقيه الحياة على أرصفتها كما تلقى أكياس القمامة، الحياة فرصة، عليك تصيّد الفرصة، كما يتصيّد صياد مرور سرب من السمك، هي لحظة، إما أن يلقي الصيّاد بشباكه ويصطاد، أو أن يعبر السرب».

كانت الشمس حادة في مواجهتي، حاولت تغيير مكاني، كنت أكرر النظر في ساعتي ربما ليس لمعرفة الوقت وإنما لسبب لا أدركه، أو للخروج من ارتباكي. ازدحم رأسي بالصمت والارتباك، وتذكرت مدينتنا والشاطئ، وسلمى وكيف نام رأسها على صدري وكيف بكت، ندمت على الساعة التي غادرت فيها مدينتنا.

جاءنا صوت ريتا من داخل المقصف «علاء»، لم أسمع نداءها، كنت غارقاً في شرودي، سمعت شذا تقول: «ريتا تناديك».

رأيتها تومئ إليّ، فاتجهنا إليها، رأيت شاباً يجلس معها على الطاولة، كدت أضحك من لهجته القريبة من لهجة أنثى، وكرهت عينيه الزرقاوين، لم أتحدث معه، ولم تقدمه لنا ريتا، طلبت لنا ريتا قهوة، ووضعت كفها على كفي: «علاء، أراك ضجراً، ما الذي يزعجك؟ قلت: «ربما لأننا في اليوم الأول»... لم تتحدَّث شذا، ظلت صامتة، ورأيت الشاب صاحب العينين الزرقاوين ينظر

إليها، أدارت له شذا جزءاً من ظهرها، أظنه فهم أنها لا تستلطفه، وهو أمر أراحني، لفت انتباهي وجود فتاة سمراء، ذات شعر جعد، تجلس قبالتي على الطاولة المجاورة، في ملامحها قسوة أميرة بدوية، هذا النوع من الملامح لم أره إلا في أفلام السينما، عندما التفتت إليّ، ابتسمت لها بشكل لا إرادي، لكنها لم تبتسم، وعندما نهضت لمغادرة المقصف، التفتت نحوي تقف للحظات قبل أن تتحرك، شعرت أن نظراتنا تتصادم.

«علاء، لست معنا، أين شردت»؟ سألتني ريتا:

قلت: «أشعر بوجع بسيط في الرأس».

قدّمت لي شذا حبة (سيتامول) وقالت: «هذه قد تنفعك».

.....

سقطت قذيفة هاون في مكان قريب، لم أستطع تحديده، أعرف أن الانفجار قريب جداً، لا أدري كيف وجدت نفسي أسأل شذا هل لدينا حبوب (سيتامول)، أشعر بألم خفيف في الرأس».

استغربت سؤالي، وقالت إنها المرة الأولى التي أطلب فيها حبوب (السيتامول)، ما الذي حدث؟... هذه الحبوب لا تفيدك، والطبيب

حذّرك من تناولها قلت: «لا أعرف لماذا جاءت حبوب (السيتامول) في بالي، أتذكرين يوم التقينا لأول مرة، وجلسنا في المقصف، يومذاك شعرت بألم خفيف في رأسي، وأعطيتني حبة (سيتامول)، وقلت: لي «هذه قد تنفعك».

اتسعت ابتسامتها «ياه!... كيف تذكرت تلك الحادثة بعد ثلاثين عاماً»؟.

قلت: «لا أدري كيف جاءت على بالي!».

«وهل خطرت ريتا في بالك»؟!

قلت: «ريتا، وجه احترق، وبات رماداً في وادٍ عميق من الذاكرة».

-٣-

تختار شذا في أي حوار بيننا كلماتها بعناية، وتحرص أن تكون ردودها على أي كلام أو حوار هادئة ولطيفة وغير استفزازية...

عكس ما كانت عليه أمي تماماً في حواراتها مع أبي، وهو أمر اعتبرته مدخلاً لي ولشذا إلى حياة زوجية سعيدة وناجحة، وبالفعل، انعكس هذا الهدوء على حياتنا الزوجية وعلى تربيتنا لأبنائنا، وعلى دراستهم ونجاحهم في علاقاتهم الاجتماعية... وباتوا ملفت انتباه في الحي بتهذيبهم، وكانت شذا تشعر أن تربية هؤلاء الأولاد من نتاجها، واستطعتُ بموافقتي الدائمة أن أزرع فيها شعوراً بأنها نجحت في تربيتهم.

بعد أن بدأت الحرب، تغيرت نفسية شذا، وباتت حساسّة جداً من أي كلمة أو حوار أو مشهد بيننا دون سبب يذكر، وتزداد حساسية عند سماعها أخبار القتال في جبهات كثيرة، وفي أطراف دمشق، وكان المشاهد الدموية التي تعرضها المحطات التلفازية الغربية والعربية ترفع من وتيرة حساسيتها وغضبها.

بت حريصاً على تفحصّ كلماتي بدقة في الحديث معها في أي موضوع كان، سواء أكان في أمور البيت، أم في قضايا سياسية واجتماعية، كما كنا نتحدث قبل الحرب، خشية أن أتفوه بكلمة تخلق لديها رد فعل غاضب... لم يكن هذا التدقيق وارداً لديّ من قبل.

في أوقات كثيرة، كنا نجلس في شرفة بيتنا، ونتأمل مدينة دمشق بصمت، فكل منا يحب رؤية دمشق من هذه الشرفة التي تبدو كمرصد عال يطل على المدينة من وادي بردى إلى نهاية جوبر والقابون، وبمرور الوقت تعمّقت علاقتنا بالمدينة، وتعمقت علاقة شذا بياسمينة زرعتها في أصيص فخاري كبير، كان هذا الأصيص خابية ماء، تعرشت الياسمينة على جدار الشرفة، وارتفعت أغصانها إلى الأعلى، ورسمت أزهارها البيضاء لوحة جميلة تبدو لي كسماء خضراء تزهر بالنجوم.

أحياناً، تتجاوز شذا صمتها ونحن في الشرفة، وتبدأ بحوار ما حول أمر ما يتعلق بنا أو بالأولاد أو بالحرب، وأحاول أن أكون هادئاً، وعندما تتوقف حواراتنا، ونغرق في الصمت، نتابع معاً أسراباً من الحمام، وهي ترسم بطيرانها أقواساً، تتقاطع أحياناً، وتتباعد أحياناً. هذا المشهد كان يبهج شذا حينما كانت فتاة صغيرة،

وعلى الرغم من تكرار المشهد بشكل يومي وعلى امتداد سنوات وجودنا في هذا المنزل، تظل شذا مأسورة بالمشهد، ولا سيما عندما تتداخل أسرب الحمام القادمة من كل الجهات فوق (الحي ٨٦)، وتدور مجتمعة بحركات دائرية، ثم تتفرق، ويتجه بعضها نحو قاسيون شمالاً، وبعضها الآخر شرقاً باتجاه دمشق القديمة، وثمة أسرب صغيرة تتجه نحونا وتقترب من شرفتنا.

في هذا الصباح، ثمة حمامة بيضاء خرجت من المجموعة، واقتربت من شرفتنا، صارت على مشارف الشرفة، حامت أمامنا، وكأنها تتأملنا، وأخيراً، ابتعدت بحركة سريعة نحو الغرب، ولحقت بمجموعتها.

قالت شذا «فأل خير»!

قلت: «احلمي بحلم تتمنيه أن يتحقق».

أسندت رأسها على كتفي، وهمست: «علاء، أتمنى لو كنت حمامة، لأطير، وأطير، وأبحث في تفاصيل هذه المدينة عن أسرار الذين عاشوا فيها، كم من الناس عاشوا في هذه المدينة؟!، يقولون إنها أقدم مدينة مأهولة في العالم، وفيها عاش هابيل وقابيل».

قلت: «وفيها قتل قابيل أخاه هابيلاً».

«لا أستطيع أن أتصور أن يقتل إنسان أخاه».

تمد يدها إلى الياسمينة المتعرشة، وتقطف زهرة:

«ثمة أشياء كثيرة لا نجد لها تفسيراً، والأفضل لنا ألا نبحث فيها».

ارتحت لسرعة تغيّر مزاجها نحو الهدوء، أمسكت بزهرة الياسمين، وقلت:

«أنت تشبهين زهرة الياسمين»؟

«ألا تراني بت سريعة الغضب».

«كلنا تبدلت أمزجتنا في زمن الحرب».

لفّت يدها حول عنقي، تصير شفتاها قريبة من أسفل ذقني:

«هل تصدّق أنني رأيتك في الحلم قبل أن أراك وأعرفك، يوم رأيتك في الكلية أول مرة، بدت ملامحك نفسها كما رأيتك في الحلم، وثيابك نفسها، وابتسامتك الهادئة نفسها؛ حكاية تبدو غريبة! لكنها الحقيقة، هل تذكر ذاك اليوم الذي التقينا فيه أمام الكلية؟

يومذاك... ارتبكت أنت وأنا أصافحك وكأنني فاجأتك، أظنك كنت تنتظرني ولم تكن تنتظر ريتا، هي حالة قدرية، هل تؤمن بالقدر، علاء، لا شيء يتم بالمصادفة، فليست مصادفة أن تأتي إليّ وتعطيني دورك أمام كوّة التسجيل».

لم أعلّق على حكاية شذا.

فهي قد قصّت عليّ هذه القصة مرات، وفي كل مرة، عليّ أن أنصت لحكايتها، وتريد أن تؤكد أن لقاءنا وزواجنا كان قدرياً، وأنه ليس ثمة امرأة أخرى تستطيع أن تعاكس هذا القدر.

عندما اندلعت الحرب، توقفت عن سرد حكاياتها القدرية، وينتابها الفزع في نوبات مع سقوط كل قذيفة على حيِّنا، وعلى الأحياء المجاورة. تظل في حالة ترقب لسقوط قذيفة على بيتنا... أو على أطرافه، أو على أحد منا أو من الأولاد في الشارع .

عندما ارتفع صوت انفجار في الطرف الغربي من الحي في أول أيام سقوط القذائف على دمشق، كان هو الانفجار الأول في حي المزة ٨٦، يومذاك ارتعش جسدها، والتصقت بي، خفت أن تفقد أعصابها، لم أعرف كيف أعالج حالتها، اتصلت مع

طبيب يسكن الحي، أخبرني أنها حالة طارئة، إن تطورت أعطها دواء مهدئاً، لم تحتج شذا إلى الدواء، أو بالأحرى هي التي رفضت تناوله قالت «لا أريد أن أبدو منهارة، هي مرحلة قصيرة، وإن طالت الحرب، في الجولان لم أخف من دبابات الإسرائيليين وهي تجوب شوارع مجدل شمس...». مع مرور الوقت ومع تزايد أعداد القذائف على الحي لم تعد تعاودها هذه الحالة بهذه القسوة التي بدت فيها أول مرة، شيئاً... فشيئاً... صارت ردة فعلها عادية، تكتفي بإطلاق الشتائم على المسلحين وعلى الجهات الداعمة لهم، وتبدأ بطرح أسئلتها عن الحرب وكيف تتمدد وتتسع!

كان حي المزة ٨٦ ينال نصيباً كبيراً من القذائف، تهدمت أبنية، ومتاجر، وسقط قتلى وجرحى، وتمزقت أجساد طلبة وهم في طريقهم إلى مدارسهم، وظلت سرادق العزاء لا تغادر الحي.

وظلت شذا تخشى أن تحصد قذيفة مجنونة حاقدة أحد أولادنا، أو أن تسقط قذيفة في الليل أو في النهار على بيتنا، وندفن تحت أنقاضه، هذا الخوف كبر عندها مع تزايد عدد القذائف التي تسقط على الحي، وتزايد عدد الشهداء والمباني المهدّمة.

كنت أتجنب الحديث معها عن تلك المخاوف، أو الحديث عن الحرب.

باتت شذا قليلة الكلام وقلقة من تغيّر العلاقات بين العاملين في مؤسستها، قلت: «هو الوجه الأسود للحرب».

أرسلت إلى الصحيفة المحلية مقالاً يدرس حال تلك التصدعات الاجتماعية التي بتنا نعيشها في الحي وفي عملنا وفي الحياة عامة، وهو أمر بدا غريباً، ولكن محطات التلفزة المعادية ظلت تركّز على الجانب الاجتماعي في محاولة لتفجير تلك العلاقات الاجتماعية الحميمة بين الناس تحت شعارات ونداءات متخلّفة.

اعتذر رئيس التحرير عن النشر: «علاء، نحن بحاجة إلى كثير من الهدوء لتجاوز ما يحدث».

أحاول إقناعه بضرورة الكتابة والحوار والنقاش حول تلك الظواهر بغية إيقاظ وعي الناس.

ويظلّ على رأيه أن من الضروري تجاهلها.

يوم ذهبت مع شذا إلى طبيب نفسي، روت له ما يفزعها ويقلقها وخوفها على أولادها من سقوطهم أو سقوط أحدهم في تفجير.

ضحك الطبيب لتبسيط حالة الخوف لديها وأخبرها أنها حالة عادية في أزمنة الحرب، ولا سيما عندما تكون الحرب بين أبناء البلد الواحد. في عيادة الطبيب، توقفت نظرات شذا على لوحة جدارية تظهر فيها أزهار ياسمين ذابلة، ويغطيها هباب أسود.

«ما حكاية هذه اللوحة التي تحمل اسمك»؟!

قصّ عليها حكاية اللوحة: «في حديقة المتحف بدمشق، ثمة شجيرات ياسمين، أظنها قديمة قدم المتحف، تبقعت اليوم وريقات زهرات الياسمين بهباب الدخان الأسود الذي أحدثته حرائق القذائف.

رسمت هذه اللوحة من وحي تلك الحالة.

أثارت تلك اللوحة قلق شذا.

راحت في كل صباح، تغسل عريشة الياسمين التي زرعتها شذا يوم زواجنا في شرفة بيتنا، وتمسح أوراق الشجيرة بقطعة قماش بيضاء، أصبحت هذه الحالة عندها مسألة روتينية تتكرر في كل صباح، أحياناً، أقول لها «أنت تبالغين في تعلّقك بالياسمينة».

تبتسم، وأحياناً، تظل صامتة.

كانت الثامنة صباحاً، وكان يوم عطلة، عندما سقطت قذيفة هاون في أول الشارع الذي نسكنه وأنا أهمّ بمغادرة البيت لزيارة صديقي حسام في حي «الشيخ سعد»، ركضت شذا نحوي: «علاء، لا تذهب، ألم تسمع صوت انفجار قذيفة؟! بالتأكيد، ستسقط بعدها قذائف».

قلت: «ليس ثمة مشكلة، تعوَّدنا على تلك القذائف، ومن له عمر لا تقتله شدة».

داعبت وجهها: «أريدك أن تهربي من خوفك».

تركت جسدها يسقط على أريكة خشبية في الصالون الصغير، والتلفاز يعرض مشاهد من تفجيرات الليلة الماضية. أصوات قذائف تتلاحق، جاءت ابنتي ريم مفزوعة، وسألتني:

«بابا، أين تسقط القذائف»؟

نهضت شذا، ودخلت غرفتنا، وطمرت رأسها بالوسادة، وتظاهرت بالنوم، تحرص شذا على الظهور أمام الأولاد بمظهر الأم القوية... لهذا غادرت الصالون، طلبت من ريم العودة إلى غرفتها وقلت: «سنكون بخير».

اتجهت إلى أمها في غرفتنا، وتركت رأسها على صدر شذا.

احتضنتها شذا، وابتسمت، بدت ابتسامة شذا ذابلة كزهرة الياسمين في لوحة الطبيب .

قلت: «ريم، اتركي أمك، هي متعبة قليلاً».

قالت شذا: «اتركها».

رحت أنظر من النافذة إلى الحي الفقير المسكين كما تسميه أم عسّاف، يغلّفه الدخان والغبار، وثمة غيوم رمادية قادمة من الغرب تقترب الحي، وتغمر قسماً كبيراً من وسط دمشق.

ثمة قذائف تسقط في وسط المدينة قرب ساحة الأمويين وفي شارع الثورة وقرب مبنى قيادة القوى الجوية، وعلا دخان كثيف قرب كلية الإعلام.

«هذه ليست حياة، لماذا يحدث كل ذلك؟! علاء، ما الذي علينا أن نفعله»؟!

قلت: «أشتاق إلى فنجان قهوة في الشرفة».

«هذا جنون، كيف تفكر بذلك»؟!

«هذا ما يخطر في بالي الآن».

بعد أن اشتعلت الحرب، صرنا نتناول قهوتنا الصباحية في غرفة نومنا المطلّة على امتداد المدينة الواسع من مزة جبل إلى قاسيون، في مرات قليلة جداً، نخرج إلى الشرفة، تبدو المدينة مخنوقة بالدخان وبانفجارات القذائف، وتتفقد شذا شجيرة الياسمين، وترش عليها الماء وكأنها (تقوم بتحميم) مولود حديث الولادة.

تظل غرفة نومنا المكان الذي تألفه شذا أكثر من غيره في المنزل، تطيل الجلوس فيها بعد عودتها من عملها، فهي إما أن تجلس إلى جانبي لمتابعة ما أكتبه على الورق، أو على الحاسوب بعد شرائه بقرض أخذته في دائرتي، أو تتلهى بقراءة كتاب، وعندما تملّ من القراءة، تلقي الكتاب على سريرها، أو على «طاولة» صغيرة إلى جانب السرير وتنام.

لم نكن نملك مكتبة، نراكم الصحف والكتب المقروءة في علب كرتونية ونضعها في زوايا المنزل، ثمة علب كرتونية معبأة بالكتب والصحف تتوزع في كل زاوية من زوايا المنزل، وتظل شذا متأففة وتسألني: «إلى متى ستظل هذه العلب الكرتونية متناثرة في غرف بيتنا، تخلص من هذه الصحف والكتب، هي مشكلة في هذا البيت الصغير، ووجودها كوجود حاويات قمامة، لا أظن أن أحداً بعدك سيقرؤها، لماذا الاحتفاظ بها»؟...

وأقول «ذات يوم سننتقل إلى مكان أكثر رحابة».

«في الجيل الآخر».

«إن كان ثمة جيل آخر»!

يظل عادل ينصحني بالابتعاد عن الكتب والكتابة: «يا رجل، لم يعد في زماننا مكان للكتاب لا في الرؤوس ولا على الرفوف.

أنت تقتل جسدك وحياتك وعمرك، اخرج إلى المقاهي، تمتع بحياتك. اعشق... المرأة أجمل مخلوق في هذا العالم» ويضحك بصوت عال: «موت الإنسان يبدأ بموت رغبته في المرأة»، قناعات عادل في الواقع غير ما يقوله.

أظنه يقول ذلك لي بسبب إحساسه أن علاقتي مع الكتاب تأخذ وقتي، ويظل دائم النصح لي:

«الزمن الحالي ليس زمن المثقفين، ما الذي تختلف فيه أنت الكاتب والمثقف عن أي مستخدم في وزارة الاقتصاد لا يعرف أن يفك حروف اسمه؟ هذا الكلام الذي أقوله لك مؤلم لك ولي، لكنه الواقع، مكانك لا يصلح لأكثر من رجل يحمل شهادة المرحلة الابتدائية، هل تعرف شهادة (السرتفيكا)؟

«أعرفها».

- ٤ -

تدخل الحرب عامها الثاني.

كثيرون غادروا الحي، وكثيرون أيضاً جاؤوا للسكن فيه من مناطق هاجروا منها... وظلت أم عساف تأتي إلينا في صباح كل يوم عطلة لتشرب معنا القهوة ، وتحمل معها أخبار الحي، والأحياء القريبة، وما تبثه الفضائيات العربية والغربية المعادية، وفي كل مرة تسألني: «علاء، ألم نكن نعرف حقيقة هؤلاء الذين يعلنون لنا العداء»؟ وقبل أن أجيب - في كل مرة تؤكد أن هذا العداء قديم، قبل أن تكون هذه الحرب، وتوافقها شذا الرأي، وأظل صامتاً، وهو ما كان يغضبها، وأحياناً تقول لي: «بصريح العبارة، لا أحب صمتك» وتقول لها شذا: هذا ليس صمتاً، علاء عندما يعيش حالة صمت، يكون يفكر بما سيكتبه».

كان الصباح في أوله، والجو آذاري، وثمة غيوم سوداء تتحرك باتجاه الشرق نحو قاسيون، وعلى الرغم من وجود قشعريرة برد

تمشي في جسدي، وافقت شذا على الخروج إلى الشرفة، وتناول قهوة الصباح.

تحركت أصابعها في شعري: «علاء، بدأ الشيب يغزو شعر رأسك».

بقيت صامتاً، وظلت أصابعها تمشّط شعري وهي تبتسم:

«وأنا بدأ الشيب يغزو رأسي، كبرنا، علاء - أنا لا أحب الشيب، ليس من أجل أن أبدو شابة، هذا الأمر لا يهمني، في النهاية، سأصبح عجوزاً، وعندما يتزوج الأولاد سأصبح جدّة، وأروي لهم حكاياتنا كيف التقينا، هي حكاية لطيفة، وتصلح رواية. علاء، هل لا زالت شادن في ذاكرتك؟ وهل كنت تحبها؟ كيف اختفت فجأة وغادرت الجامعة؟ أظنك تعرف السبب، ربما عرف أهلها بأمركما فمنعوها من المجيء إلى الجامعة، ثمة سر لا يعرفه أحد غيرك حدثني به».

«ما الذي ذكّرك بشادن الآن بعد ثلاثين عاماً»؟!

«وأنت، هل نسيتها»؟!

«ودفنتها خارج ذاكرتي».

في الواقع...

ظلّ طيف تلك الفتاة السمراء في ذاكرتي، كانت تأتي متأخرة إلى الكلية، وتخرج مسرعة مع انتهاء المحاضرة، نتبادل التحيات عن بعد، وكانت ريتا تسألني «هل هذه البدوية تلفت انتباهك»؟! وأتجاهل أسئلة ريتا عنها، في الواقع كانت تشغلني، وكانت شذا تعرف أن شادن تلفت انتباهي، هي قالت لي مرة واحدة: «هذه البدوية تلفت انتباهك» بعد ذلك لم تسأل ثانية عن ذلك...

ذات صباح، قررت انتظارها في مدخل الكلية، عادة... كانت ابتساماتها عن بعد تدفعني إلى لقائها، وكان التفكير بلقائها داخل الجامعة يربكني.

مرّ أكثر من نصف ساعة وأنا أنتظرها في الشارع قرب مدخل الكلية، رأيتها قادمة في ثوب أبيض طويل، تلفّ عنقها (بإيشارب) أبيض، وشعرها مرفوع إلى أعلى، فبدا جبينها الأسمر عالياً تحت غرة سوداء مقصوصة أطرافها حول جبينها، وهو ما أكسب وجهها صفاء، وأبرز الوشم القريب من شفتها العليا، عندما باتت قبالتي، ابتسمت، راح الوشم يمنح ابتسامتها كثيراً من الأنوثة:

«أراك هنا خارج المحاضرة»!

ماذا لو قلت لها: إنني في انتظارك، وإنني أود التحدث معك؟!

لم يعجبني هذا التسويغ، بدا سخيفاً، قلت: «كان لدي شغل، وعندما رأيتك، توقفت لأسلّم عليك».

وتوقفت نظراتي على وشمها.

سألتني: «لماذا تنظر إليّ هكذا»؟!

قلت: «سعيد بلقائك». قدّمت لها نفسي«علاء يوسف غانم».

«أعرفك، الجميع هنا يعرفونك، وأنا أتابع ما تكتبه في الصحف، لماذا لا تكتب عن البحر، وعن الساحل وأنت ابن الساحل، قرأت ما كتبته عن النّو البحري، وكيف يبتلع البحر الغاضب الصيادين وزوارقهم، بدا المشهد لي مرعباً. أظن أن البحر أكثر رقة من ذلك» واتسعت ضحكتها «نسيت أن أقدم لك اسمي... شادن الجاسم، أنا طالبة، وموظفة في الاتصالات».

سألتها:«ما رأيك أن نشرب القهوة»؟!

«والمحاضرة »؟!

«نتدبر أمرها»؟

جلسنا في(سناك) قريب من الجامعة. طلبنا عصير برتقال، أو بالأحرى هي التي طلبت، قالت «أحب الفواكه الساحلية».

«وماذا عن أهل الساحل»؟!

أغمضت عينيها، وهزّت رأسها: «وأهل الساحل، لطيفون، أبي يقول ذلك من خلال خدمته في الجيش، ويعرف أباك، كانا في الكلية العسكرية معاً، وأحيل أبي على التقاعد لأسباب صحية وهو في رتبة مقدّم».

ثمة تلفاز في الزاوية القريبة يعرض مسلسلاً، بطل المسلسل يرتدي نظارته، ويلفّ حول عنقه شالاً قطنياً بشكل فوضوي، حاول إعادة ترتيب الشال حول عنقه، لم ينجح في ذلك، اقتربت صديقته منه، ولفّت الشال حول عنقه، قبّلها على شفتيها، نظرت إلى شادن، أشاحت بوجهها جانباً بخجل... وساد صمت، سألتها:

«أي الأفلام تحبين»؟!

«العاطفية».

حدثتني عن فيلم مصري من بطولة عبد الحليم حافظ وشادية لا تتذكر اسمه.

وسألتني عن نوعية الأفلام التي أحبها، قلت: ليس ثمة نوع محدد أحبه، سأدعوك متى شئت لحضور فيلم سينمائي، يقولون إن سينما الكندي تقدّم أفلاماً جيدة ومختارة بعناية.

خطر لي أن أقول لها: «لقاء اليوم ليس مصادفة، منذ أيام وأنا أعدّ له، البارحة لم أنم وأنا أفكر كيف سنلتقي وأين وكيف وماذا سأقول لك».

أغلق سؤال شذا المفاجئ نوافذ ذاكرتي:

«علاء، هل توقف مجد عن التفكير بابنة زهير المكتبي»؟!

كان زهير المكتبي الطالب في كلية الاقتصاد الأكثر ظهوراً مع ريتا في الجامعة...

يدخل حرم الكلية بسيارة «رانج» ذات زجاج (فيميه)... وهو أمر استثنائي، عرفت من ريتا عندما سألتها عن الشاب ذي العينين الزرقاوين، المخنث في صوته ولباسه، أن والده وكيل السيارات اليابانية في البلد، ويمتلك معمل أدوية طبية، ومعملاً للجوارب، ومعامل للنسيج والمنظفات ومباني وفيلات وله شركاء وأصدقاء في مواقع متقدمة بالدولة، ومن بينهم خالي نسيم ووالدها.

كلما التقيت (زهير مكتبي) بحضور ريتا، يبدأ بنقد نظام الدولة الاقتصادي، كان في رأيه أن تقسيم الناس إلى كادحين وبرجوازيين أمر يوقف تطور المجتمع. هي إرادة الله، يعطي من يشاء، ويحرم من يشاء، وأن أي قوانين تعاكس هذه الإرادة كفر...

ويتكلم بصوت عال وهو يتحدث، ويؤكد حاجة الوطن إلى عقل كعقل والده «د. عمار المكتبي».

ذات يوم التقيتهما مصادفة في شارع الثورة.

نادتني ريتا من نافذة السيارة: «تعال... اصعد معنا. أنت مخطوف».

دخلنا مقهى أنيقاً... بدا المقهى معتماً، تنوس فيه مصابيح ملوّنة باهتة، تعكس جواً رومانسياً، بدأت أشعر بالغضب الممتزج بالارتباك وكأنني مخطوف فعلاً... وأول مرة أشعر بالغيرة على ريتا، وهو يغازلها بجرأة تصل إلى حد الوقاحة، ورأيت يده تمسك بيدها مرات ويضحكان، وتملكني غضب منه وهو يتحدث عن علاقات والده بجهات كثيرة في البلد وخارج البلد وأن اقتصاد البلد لا ينهض إلا برجال كوالده ووالد ريتا وخالي نسيم وآخرين.

وجدت نفسي أسأله: «هل تعتقد أن والدك يدير مؤسساته بعقله أم بعلاقاته»؟

لوى عنقه، ومطّ شفته السفلى إلى الأمام: «بماذا يديرها أيها المثقف»؟

قلت: «بشركائه الفاسدين».

كان النادل يضع على الطاولة المغطاة بقماش من المخمل الأخضر كؤوساً من عصائر البرتقال، سقط كأسي بحركة من يدي واندلق على الطاولة، لم ألتفت إلى الكأس، ولا إلى لريتا التي بدت غاضبة من تصرفي، غادرت المقهى، يوم سألتني ريتا «لماذا فعلت ذلك؟». قلت (بغضب): كيف تسمحين له بممارسة وقاحته معك؟! كان يغازلك وأنت راضية؟!

سألت: «وأنت كيف تسمح لنفسك أن تسألني، من أنت بالنسبة إليّ»؟!

أحياناً، أشعر أن ذاكرتي تنغرز بمسامير صدئة، لم أكن أشعر بتلك الحالة قبل الحرب، ولم تكن شذا تطرح مثل هذه الأسئلة التي تفتح الذاكرة على الماضي، أهو الهروب من الحاضر عندما

سألت زميلي عادل السؤال نفسه، قال: «لا يعرف أحدنا إلى أين سيهرب، إلى الماضي أو إلى المستقبل، وكلما حاول الانتقال بحركة إلى الأمام أو إلى الخلف يجد نفسه يغرق أكثر في وجع الحاضر كما يمشي في مخاضة موحلة».

فور وصول شذا إلى البيت عصر هذا اليوم، فتحت القرآن، وراحت تقرأ في سورة آل عمران، هي بالعادة تقرأ في الصباح أو في المساء، وليس في مثل هذا الوقت، سألتها بعد انتهاء تلاوتها عن السبب، قالت: «طوال اليوم وأنا أفكر بيوسف، لا أدري لماذا يقلقني وضعه، أما زال يفكر بالسفر؟ قلت: لا أدري، فتحت محفظتها وأخرجت صورته وتأملتها، ثم تأملت صورة مجد وريم، أردت ممازحتها: «وماذا عن صورتي»؟! راحت تبكي. كانت عدة قذائف في تلك اللحظة تسقط في ساحة الحي قرب المدرسة، وجاءني هاتف حسام «هل أنتم بخير»؟! «نحن بخير، وأنت؟!». راح يشتم الحرب... وأغلق الهاتف.

قبل الغروب... بعد أن أعادت شذا ترتيب ملابسها في خزانتها، جلست إلى جانبي لنشرب الشاي بالنعناع معاً كعادتنا. هي اليوم تأخرت في إحضار الشاي. قرأت في القرآن بعض الوقت،

واستغرقها بكاء طويل. رحت أكتب على ورقة في دفتر متوسط الحجم مشاغبة غزلية:

«عيناك كسنابل قمح، تلوح في حقل على ضفاف الفرات...

وأنا الطائر المشتاق إلى تلك السنابل».

«علاء، لمن هذا الغزل»؟

«لفتاة جولانية».

زمّت شفتيها «وربما لشادن، أما زلت تتذكرها»؟!

«وإن تذكرتها، ما الذي يضر أو ينفع في الأمر، هل باستطاعتنا أن نعيد الماضي، وهذا الماضي انتهى بإرادتنا، تلك الجولانية أغلقت كل الأبواب في وجه الماضي بقوة. في الحقيقة تطل شادن في الذاكرة بين الحين والحين، منذ أيام رأيت امرأة تمشي في ساحة الأمويين، وتتجه نحو المكتبة المركزية، أسرعت بخطواتي، وعندما وصلتها، كانت امرأة أخرى، سألتني: هل تريد شيئاً يا أخ؟! قلت: لا، حسبتك صديقة لم أرها منذ زمن. ابتسمت برقة: لا مشكلة، نستطيع أن نكون أصدقاء. ابتعدت عنها... أذكر...

كانت الساعة تقارب الثامنة صباحاً. رأيتها تقف في مدخل الجامعة.

تمشي... نظراتها دافئة على وجهي.

ثمة عطر خفيف راح يتغلغل إلى رئتي، وظلت ابتسامتها تتفتح على شفتين سمراوين وممتلئتين، واحتضنت كفها وأنا أصافحها. تركت أصابعها في كفي.، تمنيت لو أستطيع تقبيلها في تلك اللحظة. تتسع ابتسامتها، وتصبح شفتاها متألقتين كوردة جورية، سخرت من نفسي: «هذا جنون!»، هي المرة الأولى التي أفكر فيها بتقبيل فتاة أشعر نحوها بميل عاطفي.

بدا الشارع مزدحماً، وبوابة الكلية خاوية إلا من بعض الطلبة، وثمة سيارات تعبر.

أخرجت من حقيبتها زهرة حمراء، وقدّمتها لي.

«ما المناسبة»؟!

قالت: «عيد ميلادك، ربما تسأل كيف عرفت تاريخ ميلادك؟». لم تكن الوردة كبيرة، أظنها تفتحت في صباح هذا اليوم أو قبل ذلك بيوم واحد.

«وحمراء»؟!

ابتسمت، ولوت عنقها، وبدت حركة عينيها وكأنها تغمزني: «وما المشكلة.»؟!

«لا مشكلة، هي جميلة».

قالت: «و بهذه المناسبة سأدعوك إلى فنجان قهوة».

دخلنا مقهى يعجّ برجال ونساء وبشباب وشابات من أعمار مختلفة، جلسنا في زاوية من المقهى، كان على كل منا أن يرفع صوته وهو يتحدث بسبب ضجيج موسيقا تعلو من تلفاز بالأبيض والأسود، خطر لي أن أعلن لها عن مشاعري نحوها: «شادن أنا أحبك». هي مناسبة جاءت وحدها، وعليّ استغلال هذه الفرصة كما قال خالي: «الحياة فرصة، والذكي من يمسك بها كما يمسك صياد بسرب من الأسماك وهو يعبر».

بقيت مرتبكاً، لا أعرف كيف سأبدأ، ربما لأنني كنت أتهيأ لذلك.

سألتني:«أظنك ستقول شيئاً. ملامحك تقول إنك تتهيأ لقول شيء».

«المكان مزدحم، وعلى كل منا أن يرفع صوته، هذا ما أود قوله» اتسعت ضحكتها، وتركت يدها على يدي فوق الطاولة بحركة بدت لا شعورية، شعرت بدفء أصابعها، قلت: سألعب معك لعبة نلعبها في مدينتنا، أمسكت بالوردة ورحت أنتزع وريقاتها ورقة ورقة «تحبني، لا تحبني»، مع الورقة الأخيرة جاء دور القول «لا تحبني».

سألتني من تقصد باللعبة؟!

«هي لعبة».

جاء النادل بالقهوة، قدّمت لي فنجان قهوتي بيدها «علاء، هل تعلم أنني في متجر الزهور كنت في حيرة وأنا أفكر بلقائك، لم يكن في ذهني شراء وردة حمراء أو صفراء أو بيضاء، المهم كان شراء وردة، وجدت نفسي أختار وردة حمراء، وأنا في الطريق إلى هنا سألت نفسي لماذا وردة حمراء؟! ...علاء، هل لديك تفسير لما حدث»؟!

«ماذا تقصدين»؟!

«لا تدقق كثيراً بالكلمات، طلبت تفسيراً».

«فهمت».

توقعت أن تسألني ماذا فهمت؟!، وتمنيت أن تسأل لعلي أجد في سؤالها مدخلاً للاعتراف لها بحبي، منذ وقت أفكر بذلك، لم أجد الجرأة لذلك، وهذا ما جعلني أطيل النظر إليها بصمت، أظنها قرأت ارتباكي، أمسكت بفنجان قهوتها، ورشفت رشفة، وظلت نظراتها على وجهي:

«هل تريد أن تقول شيئاً»؟!

«لا».

يخرجني سؤال شذا من ذاكرتي «علاء، ألا تلاحظ أن شرودك زاد في هذه الآونة»؟!

قلت بعصبية: «وأنت، ألم تلاحظي أن أسئلتك كثرت في هذه الآونة»؟!

جاءت ردة فعلها على سؤالي هادئة:

«أعرف، علاء، في داخلي كَمٌّ هائل من الضجيج والصخب والقلق لسبب لا أعرفه، أتمنى أن تستوعب تلك الحالة التي أعيشها الآن، ليس الأمر بيدي».

«وأسئلتك الدائمة عن شادن»؟!

ثمة غناء قادم من التلفاز لمطرب عراقي يغني أغاني فراتية. أعرف أن شذا تحب هذا المطرب بالذات... قلت: «الأغنية جميلة» حاولت أن تبتسم لكنها لم تستطع، ورأيت في عينيها دمعة، أمسكت بأطراف أصابعها، توقفت نظراتي على «خاتم» زواجنا.

منذ زمن طويل وأنا أفكر باستبدال هذا الخاتم بخاتم آخر أفضل منه، لكن ظروفي ظلت سيئة، وأكثر من ذلك، راحت في زمن الحرب تسوء أكثر، وباتت القيمة الشرائية لراتبي لا تعادل قيمة ما كنت أتقاضاه يوم بدأت أعمل في الدولة قبل ثلاثين عاماً، وارتفع سعر غرام الذهب من مئتي ليره إلى أربعين ألف ليرة، صدقت نبوءة شذا، يوم قلت: لها أفكر باستبدال خاتمك بآخر أفضل منه. قالت: «هذا لن يحدث».

«إذن، أنا أكذب»؟!

«لا، ظروفنا هي التي تكذب».

كتبت في نوع من المداعبة لها على حاسوبي:

«تبحث شهرزاد الجميلة في أدراج خزائنها عن حليها ملابسها... ثمة مجوهرات وملابس من كل الأنواع والألوان والماركات، وعندما داهمها النعاس، نامت على زند شهريار».

ضحكت: «أنت تدهشني بخيالك، ألا تلاحظ ليس ثمة ترابط بين ما تكتبه والواقع؟... علاء، شهرزاد، فقدت إحساسها بكل شيء».

دخل مجد إلى غرفة نومنا وهو يرتدي بدلة رياضية عليها إشارة ماركة معروفة. لم يكن من طبيعة الأولاد أن يدخل أحدهم غرفة نومنا قبل أن نستيقظ، أهناك أمر طارئ يريد أن يقوله مجد، ربما سيحدثنا عن ابنة زهير المكتبي، أو بنيّته مغادرة البلد، لأن الحياة هنا لم تعد تناسبه .

لم أسأل«مجداً» ماذا يريد، ولم أسأله من أين أحضر هذه البدلة الرياضية، أردت ألا أطرح عليه أسئلة، لأنها قد تفجّر نزقه. في الآونة الأخيرة بات نزقاً، والجميع في البيت صاروا نزقين، وعلى رأي أم عساف الجميع في الحي باتوا نزقين، «أظنه الجوع والفقر والحاجة والشعور بالضياع والخوف».

كان مجد قد أنهى في هذا العام دراسته في كلية الطب بجامعة دمشق، واتجه إلى التخصص بجراحة القلب في مشفى القلب، ولم يتقاض بعد أي راتب من المشفى. من أين اشترى تلك البدلة الرياضية؟! الأنيقة، أظنه قرأ سؤالي في نظراتي إليه، لهذا أسرع في القول إن (عروبة) ابنة زهير المكتبي أهدته إياها في عيد ميلاده، وهي مبادرة عظيمة منها وأنتم لم تتذكروا المناسبة، ولو بكلمة».

نفر صوت شذا حاداً:

«هل باتت ابنة زهير المكتبي تحبك أكثر منا؟!

ابنة زهير المكتبي تعدُّك تسليتها، أنت مجرد لعبة صغيرة في يدها».

أردت أن أنهي الحوار، غمزت مجداً بطرف عيني كي يخرج من الغرفة.

قال: «لا يستطيع الإنسان أن يتحدث معكما».

لحقت به إلى غرفته، وسألته «هل ثمة أمر»؟!

ردّ بعصبية وبصوت عال: «لا».

عدت إلى غرفتنا، وحاولت الاقتراب من مشاعر شذا بكلمات رقيقة.

«شذا أنت عاقلة، وعلينا التعامل مع الأولاد بهدوء، غمرت رأسها بالوسادة وتمددت على طولها في السرير.

همست لريم «أعدّي لي قهوة».

واتجهت إلى الصالة لمتابعة نشرة الأخبار المسائية.

- ٥ -

بالتأكيد لن يظل أحدنا مهتماً بإبراز عواطفه نحو شريك حياته بالعبارات الرومانسية الشفيفة، وبالملابس الأنيقة والمثيرة، هذا أمر أدركه، وأدرك أن شذا تجاوزته تماماً، فهي باتت أقرب بطبيعتها إلى الأمومة منها إلى الزوجة، وهو أمر تعرف أنه يرضي الزوج كما هي حال كل النساء الشرقيات بعد زواجهن .

لم تعد شذا ترتدي فستانها الأبيض في صباحات أيام العطل، منذ سنوات، وقبل الحرب بوقت طويل، لم تعد ترتدي فساتينها الرقيقة والشفافة إلى حد ما، تكتفي بإعداد القهوة، وتأتي إليّ بثياب نومها، وهي غالباً ملابس عادية جداً، ولم تعد تسرّح شعرها بعد النوم، أحياناً تسرحه بأصابعها، وتزيح عن وجهها إلى الوراء خصلات شعرها التي تنحدر على جبينها وحول وجهها، ولم تعد تضع قليلاً من البودرة. اختفت البودرة تماماً من درج خزانتها، وانتهت زجاجة العطر الوحيدة التي أهديتها إياها في عيد ميلادها منذ سنوات ولم تأت بأخرى، بقيت الزجاجة

الفارغة في درجها كذكرى كما أخبرتني، ولم تسعفني الظروف المادية لشراء زجاجة عطر جديدة لها.

في هذا الصباح، سألتني شذا: «لماذا تنظر إليّ هكذا»؟

كنت أمعن النظر إلى شعرها المنسدل على كتفيها، وحول وجهها، ثمة خصلة شعر كانت تغطي عينها اليسرى، أزاحتها إلى الوراء. ثمة شيب خفيف يتماوج بين جدائل شعرها، قلت: «هو الاشتياق، هل الاشتياق ممنوع»؟

زمّت شفتيها في حركة لم أستطع فهمها، وقالت: «ليس هذا وقت برودة أعصابك».

ظلّت نظراتي تتأمل وجهها، وتدقق في ملامحها... بدت التجاعيد تعتصر اتساع عينيها، وتطفئ هذا البريق الذي كان متوهجاً فيهما يوم عرفتها، وإلى سنوات قريبة، وثمة خطوط دائرية، تدور حول فمها، وتفقد شفتيها نضارتهما ولمعانهما الوردي... تنحدر نظراتي إلى صدرها، خمّنت أنها لا تلبس حمالة صدر، وأنا في الواقع لا أحب حمالات صدرها وأقول لها في لحظات خاصة: «شذا، لا أحب هذا النوع من حمالات الصدر»!

تقابل ذلك بضحكة: «عندما ستسافر إلى باريس أو إلى لندن، أحضر لي معك دزينة من حمالات الصدر التي تلبسها نجمات هوليود، ودزينة من الألبسة الداخلية... وعطراً وقمصان نوم حريرية لأتبرج لك، إن كان ذلك يسعدك ويرضيك، ولك عليّ وعد أن أظل في وجهك دائماً، وكما تريد...

ليتك تزوجت من ريتا، كان كل شيء في حياتك سيكون مختلفاً، وكما تريد».

قلت: «شذا أنت عندي بكل نساء العالم، جاء بنا القدر لنكون معاً».

وداعبت خصلات من شعرها تنحدر على جانب من وجهها، وقلت: بهدوء وحنان:

«أنت كشجرة السنديان التي تظلل بيت عمتي فاطمة، تزداد بمرور السنوات قوة وجمالاً، ويصير فيئها أكثر سحراً». واحتضنت رأسها وقبلته، ظلت هادئة، وتركت رأسها على صدري.

كانت شمس كانون تلقي من النافذة ضياءها الباهت على (روب الديشامبر).

بدا (الروب) مرقّطاً ببقع ضوئية، أمسكت (بالروب) المعلّق على المشجب، وحرّكته بهدوء، ثمة غبار خفيف تطاير، لم أسأل شذا كيف تراكم الغبار على الروب، ولماذا كرهته... أعرف أن أي سؤال في هذا الاتجاه سيغضبها، وتظنه اتهاماً لها بالقصور العاطفي، وهي تعبر نحو سن اليأس منذ سنوات... على العموم لم يكن هذا الأمر يشغلني، في هذه الفترة من الزمن تشغلنا تطورات الحرب الدموية وإلى متى ستستمر، وهل الدولة قادرة على الانتصار؟ والسؤال المهم الذي كنت أناقشه مع حسام المتفائل دوماً بالانتصار: ماذا بعد الانتصار؟ هل ستعود الدولة إلى ما كانت عليه قبل الحرب، أو أنّ آثار الحرب ستترك ندوبها العميقة على حياة الناس وعلى الدولة كمؤسسة؟

وقفت، ونظرت من النافذة.

ثمة غيوم متفرقة داكنة تتزاحم فوق المدينة، وتتلاقى مع سحب من الدخان الأسود الذي أحدثته تفجيرات الصباح، أخبرتنا أم عساف أن عائلة بالكامل، ثلاثة أطفال ورجل وزوجته، قضوا تحت أنقاض منزلهم، وأن امرأة في شهرها التاسع تمزقت أشلاؤها، وأن منظر الجنين كان مأساوياً، خرج من بطن أمه وكأنه في بركة

دماء. راح يتحرك، ولم يجرؤ أحد على قطع الحبل السري للجنين، ولهذا سرعان ما فارق الحياة، وظل إلى جوار أمه الغارقة بدمها.

كان مجد ينطلق بأغنية وهو يقف أمام المغسلة.

أخبرت شذا أن مجداً هنا، لا تحاولي الحوار معه حول سفره أو في أي أمر آخر، يهدد بالسفر فحسب، ربما لنزقه من الواقع. كلنا نزقون من هذا الواقع، وحياة الأطباء في المشافي ليست سهلة، هم على أعصابهم، منذ أيام سقطت قذائف على مشفى المواساة، وعلى مشفى الشرطة ومشفى البيروني، ويحاول الإرهابيون اقتحامها، لا تظني أن مجداً وزملاءه في وضع نفسي جيد، علينا استيعاب وضعه».

لم يكن مجد حسن الصوت، لكنه يعرف كيف يمازج بين صوته والموسيقا، وهو يعزف على عود اشتريته له وهو في المرحلة الابتدائية، كبر وكبر أداؤه، يومذاك اعترضت شذا وقالت:

«أنت ستقتل مستقبل مجد بتشجيعه على الموسيقا».

في مناسبات تخص العائلة، يعزف مجد على عوده وتغني ريم. في صوت ريم شجن عال ونبرة حزن عميق... هزّني شعور بالحزن وأنا أستمع إلى مجد. لا أدري كيف أشعر منذ وقت طويل

أن كل ما يحيط بي يدعو إلى السوداوية، الوضع المادي، علاقاتي مع زملائي في العمل، حال الناس في الحي، قذائف الهاون التي لا تتوقف، كل الظروف أراها تتحرك نحو السوداوية، مازلت أتصور مشهد الطفل الجنين خارج بطن أمه، وهومعلق إليها بحبل سري، ولا أحد يتقدم لإنقاذه، هذا المشهد اعتصر قلبي بقوة وأبكاني. حرصت على ألا أخبر شذا أو الأولاد بمشاعري هذه، يوم أخبرت عادل بما أشعر في هذه الفترة من الحزن والقلق وتزاحم المشاهد المأساوية في رأسي كالكوابيس، قال: «يا رجل هذا أمر خطير، أخشى عليك من الزهايمر».

قلت لشذا: يخطر ببالي أن أبكي طويلاً وبصوت عال، لعليّ أرتاح.

قالت: «لا تضعف، إن ضعفت انهزمنا».

تعبر غيوم سوداء من الغرب إلى الشرق، ثمة غيمة تطاولت حتى قمة قاسيون وصارت تشبه تمساحاً، راحت الغيمة التمساح تلتهم الغيوم الأخرى، تغيّر شكل التمساح، صار وحشاً أسطورياً تتمدد أطرافه في كل الاتجاهات كلّها. منذ زمن لم يسقط المطر، أقيمت صلاة استسقاء، مرّ أكثر من شهر على صلاة الاستسقاء ولم يهطل المطر، قالت أم عساف: «هو غضب السماء».

سألتها: «ولماذا غضب السماء»؟

قالت: ﴿لا يغيّر الله بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾

ظلّ برد الشتاء قاسياً كقسوة الحرب، فالمدافئ لم تعمل لأن مازوت التدفئة لم يتوافر إلا في السوق السوداء، وأغلب الناس ليس باستطاعتهم شراء المازوت من السوق السوداء .

انفجرت قذيفة على مشارف حي الشيخ سعد، قلقت على حسام، أعرف أنه مع كل انفجار قذيفة تسقط على حي الشيخ سعد أو قرب مبنى هيئة الإذاعة والتلفزيون، يصاب بالقلق، لديه إحساس أنه ذات يوم سيلقى مصرعه في انفجار.

اتصلت معه على الهاتف: «حسام، هل أنت بخير»؟

«الحمد لله، لم أمت بعد».

«ماذا حدث»؟

«ثمة قتلى وجرحى، واحتراق محلات تجارية وسيارات في مكان قريب من بيتي. زجاج بيتنا تكسّر بالكامل. هي الحرب اللعينة. في كل يوم نعيش هذه المأساة، اكتب عن الحرب».

«ما الفائدة من الكتابة، صوت الرصاص هو الأقوى»؟

كان في صوته حزن أكثر من أي وقت مضى...

ظهيرة البارحة، التقيته مصادفة وهو يخرج من مبنى هيئة الإذاعة والتلفزيون بعد تقديم برنامجه «أوراق»، قال: «قلبي منقبض من حلم رأيته، هل تؤمن بالأحلام»؟

«لا».

«رأيت في الحلم أطفالاً مقطوعة رؤوسهم بالسواطير، وقتلة يمشون في الشوارع غير مبالين، ركضت إلى بيتي وأغلقت الباب عليّ، وغمرتني عتمة، وسمعتهم يطرقون بابنا بأخمص بنادقهم وأحذيتهم الثقيلة».

قلت: «هو مجرد حلم».

«أبداً، أحلامي تصير حقيقة».

قلت: «أحلامك كأحلام شذا، تقول إنها رأتني في الحلم قبل أن تراني بعينيها».

ضحك: «وهكذا كانت قصتها التراجيدية معك».

«هي تقول غير ذلك، تقول كان حلماً جميلاً، وتحول إلى حكاية أكثر جمالاً».

تابع ضحكته «شذا ذكية، المرأة الذكية هي التي تزرع في رأس زوجها أنها معه في حلم جميل».

علاقتي مع حسام ليست قديمة، بدأت قبل الحرب بعام أو أقل من عام، التقينا أول مرة في مقهى الهافانا بعد حضورنا لفيلم سينمائي في سينما الكندي. يومذاك، حدث نقاش طويل حول الفيلم، وبحضور كتاب ومثقفين ومخرج الفيلم، وبعد الحوار تمنى عليّ أن يجري معي حواراً في برنامجه «أوراق»حول الفيلم وحول الثقافة بشكل عام.

ارتحت لحسام منذ اللقاء الأول... كان حواري التلفزيوني الأول معه في برنامجه أوراق، وفيه تحدثنا عن العلاقة بين المثقف والوطن، ولم نتطرق إلى الفيلم، بعد عرض الحوار، حدثني عن ردود الفعل على الحوار:

«علاء، حرام أن تكون بعيداً عن الحوارات الثقافية».

«هم لا يريدون الحوار معي، كل مسؤول عن برنامج ثقافي له أصدقاؤه، ولهم سهراتهم، أنا أعرف ذلك، والأفضل لي أن أظل هكذا».

يومذاك لم يعلّق على رأيي، بعد أشهر استضافني في حلقة جديدة بعنوان «العلاقة بين المثقف والسياسي». لم يكن حسام بعد الحرب

كما هو قبل الحرب، لم يعد يحاور في قضايا اجتماعية وسياسية، صار تركيزه على الحرب وأهدافها. عندما سألته عن الهدف، هزّ رأسه بألم «ألا يكفي الناس ما يفعله الرصاص في أرواحهم؟

في كل يوم قوافل شهداء وجرحى وأبنية مهدّمة وسيارات محترقة».

آراء حسام تمتزج دائماً بحس ثقافي وبحزن وطني...

ويظل مؤمناً بقدرة الوطن على الانتصار، قال بثقة «الحرب طويلة وموجعة، ولكننا سننتصر».

أغلقت الهاتف، سألتني شذا «ماذا حدث هناك، هل حسام بخير»؟!

«سقط جرحى وقتلى، واحترقت محلات وسيارات».

وبحركة لا إرادية، عدت إلى تحريك (الروب) على المشجب...

ربما بسبب القلق الذي أصابني على حسام، وربما لأنني كنت أشعر بالضجر.

اندفع الغبار في الغرفة، وعبر إلى أنفي، رحت أعطس. قلت: «من أين جاء كل هذا الغبار»؟!

قالت شذا: «هذه مسرحية».

قلت بغضب: «إن كنت لست بحاجة إلى (الروب)، أعطه لامرأة فقيرة أفضل من بقائه على هذا المشجب المسكين، أظنه تعب من حمله على مدى سنوات... وبصراحة... أنا تعبت من رؤيته مصلوباً على هذا المشجب، وأظن أن الأولاد تعبوا منه كذلك، وأظنهم تساءلوا أيضاً عن سبب بقائه»؟

«هل تعبت من (الروب) أو من صاحبته»؟

كنت أعرف جيداً متى تكون شذا جادة في قولها وتعليقاتها.

هي ذكية وقادرة على توظيف السؤال في الوقت المناسب وفي الوضع المناسب، وأعرف أن أي حوار اليوم سيثير غضبها، فهي منذ الصباح ليست في مزاج جيد.

راح المطر يتساقط، ثمة رذاذ مطري، انسكب على زجاج النافذة، حتى البارحة، لم يكن الطقس يوحي بسقوط مطر غزير، مذيع النشرة الجوية قال في نشرة البارحة «من المتوقع سقوط الثلج على ارتفاع سبعمئة متر».

علا صوتها: «لم أكن أعرف أن هذا (الروب) يقلقك، ثمة أمر آخر في رأسك».

«والله لا أقصد شيئاً. كل ما حدث أن كلماتي انفلتت ببساطة. أنت تقولين عندما تنفلت الكلمات من عقال العقل تصير سخيفة، اعتبري ما قلت: سخيفاً».

عندما تطيل شذا النظر بهذا الشرود الصامت، أدرك أنها احتبست فكرة ما في رأسها، وأنها تعيد النظر فيها لترتيبها لغوياً على الأقل، وتحرص أن يكون صوتها وهي تتحدث هادئاً.

في هذه المرة، طال صمتها ولم تقل شيئاً.

تساقطت القذائف قبل أن ينتصف الليل على مشارف خزان المياه القريب من بيتنا، نهضت شذا من السرير، وراحت تنظر من وراء النافذة إلى الحرائق التي اشتعلت وأضاءت أحياء مزة جبل، اتصلت أم عسّاف على الهاتف «ثمة قذائف أحرقت سيارة من نوع «سابا» لجارنا أبي مازن صاحب المتجر الصغير الذي يبيع أدوات منزلية».

سألتها: «وماذا عنه»؟

«هو بخير».

كان مخزن أبي مازن قبل الحرب مكدّساً بالمواد المنزلية الرخيصة، يمر به أهل الحي ولا يشترون منه، يريدون بضائع أكثر جودة وغلاء. عندما ضاق الحال بالناس، وانخفض سعر الليرة في الشراء عشر مرات، اتجهوا لشراء تلك الأدوات الرخيصة من متجره، فتحسّن حاله، واشترى هذه السيارة القديمة.

قلت: «في السيارة، الأمور عادية، ثمة من يموت تحت سقف منزله بالقصف».

استمر القصف، وعندما توقف، رأيت الناس يركضون في الشارع باتجاه خزان الكهرباء - نزلت إلى الشارع، وركض مجد معي، ثمة منزل سقفه من الصفيح، قالت أم عساف: «يسكنه وافد جديد جاء بعد أن دخل الدواعش مدينة دير الزور، ومن حسن العناية الإلهية أن الأسرة لم تكن موجودة في البيت، يقولون إن المرأة خرجت مع أولادها قبل الانفجار لزيارة أقرباء لها في الحي».

تجمّع كثيرون في العتمة ومعهم مصابيح لاستخراج أثاث البيت المهدّم من تحت الأنقاض، كل شيء في البيت كان مدمراً، واشتعلت فيه النار، لم تأت سيارات الإطفاء، راحت النار تلتهم

البيت، قال مسؤول في الدفاع الوطني: «ليس لدى جهات الإطفاء وقود لتحريك سياراتهم».

سألته أم عساف: «ماذا لديهم إذن؟... ويسكي»؟

نظر إليها بغضب: «أم عساف، الزمي الصمت، هذا كلام يستفيد منه الإرهاب».

ردّت باستخفاف: «وعدم مجيء سيارات الإطفاء والإسعاف من يستفيد منه»؟

نهرها بقوة: «اسكتي».

نفر صوتها حاداً: «لن أسكت، هو موت في الحالين. على ماذا سأخاف»؟

«تساقط المطر، وانطفأت النار المشتعلة في المنزل، ورأيت في أثناء عودتي سيارة جارنا أبي مازن، كانت كتلة من الحديد المحترق .

جاء الصباح بارداً، ثمة منازل قريبة من مدرسة الحي بدت مهدّمة تماماً، الأسقف الإسمنتية على الأرض، وتطايرت الأسقف المعدنية من التوتياء وتناثرت بعيداً، وبدا المشهد مأساوياً، كان التلفاز يبث مشاهد عن تخريب جسور، وتفجير محطات مياه

وكهرباء في مدن عديدة. ثمة وجوه أطفال كأوراق الورد تتناثر في الطريق إلى مدرستهم في حي النزهة بحمص. مشاهد مؤثرة وموجعة، وثمة معلمة مدرسة ملقاة في الشارع، تمزقت ملابسها على الصدر والساقين، وتقطعت بعض أوصالها، وبدا وجهها المدمّى وكأنه حي يصرخ.

قالت شذا: «أغلق التلفاز، لا أستطيع تحمّل المشهد». واتجهت إلى غرفتها، لم أشأ أن ألحق بها، أعرف أنها ستغرق في خوفها من المشاهد التي عرضها التلفاز طويلاً، خطر لي أن اعدّ لها القهوة، اتجهت إلى المطبخ، لم أستطع إشعال موقد الغاز، أمسكت بأسطوانة الغاز، كانت فارغة، اتصلت مع عادل لتأمين أسطوانة من تاجر غاز يسكن إلى جواره، وقبل أن أقول له أريد أسطوانة غاز، أخبرني أن أخاه محموداً الذي بقي في مدينة يبرود ذبحه الإرهابيون الذين احتلوا يبرود أمام تلامذته في المدرسة لأنه رفض أن يقوم بتدريس الكتب التي أحضروها لتلاميذ المدرسة».

عدت إلى الصالون، وبقي التلفاز مغلقاً، وعندما جاءت ريم وأرادت فتحه، طلبت منها أن تغلقه «أمك متعبة وصوت التلفاز يزعجها».

جلست على كرسي قريب مني، وأمسكت بيدي «أبي أراك أنت وأمي في حزن دائم وفي خوف دائم، اخرجا من حزنكما، قلوبنا تتحطم عليكما، كونا قويين».

احتضنت رأسها، ذكرتني بعمتي فاطمة «كان تنصح أبي أن يخرج من حزنه وقلقه هي الحياة قصيرة والحزن يقتلنا قبل موعد موتنا».

عادت الانفجارات تتلاحق، ولا سيما عند أطراف المدينة التي يسكنها الفقراء النازحون من مدن عديدة للعمل في العاصمة، وتصاعد الدخان في حي جرمانا القريب، ثمة دخان أسود كثيف ارتفع في السماء، وتحركت على يد ريح شرقية شمالية، وحملت الدخان نحو قلب المدينة، وغمر شارع الثورة وساحة الأمويين، واقترب الدخان الأسود من الحي ٨٦، وتوغل باتجاه خزان الكهرباء القريب، ورافق ذلك انفجارات متتالية، اهتز بيتنا، وسقط زجاج نافذة الصالون المطلة على الشارع.

قالت شذا: «أنا أختق».

قلت: «اغمري وجهك بقطعة قماش مبللة».

عبرت سماء الحي طائرتا ميغ، وتتالت أصوات انفجارات قوية في أماكن كثيرة، قال مجد: «هم اليوم يشعلونها بقوة، أأريتم أننا في الجحيم؟!». بقي الجميع في البيت صامتين، راح مجد، يغني أغنية حزينة وهو يعزف على عوده. استمرت الانفجارات سقطت القذائف على بناء قريب يبعد عنا في الشارع الآخر نحو ثلاثين متراً. صرخت شذا «هل سقطت القذيفة على بيتنا»؟! اتجهت إليها، كان جسدها يرتجف.

لم يتوقف مجد عن الغناء على الرغم من قوة الانفجار واهتزاز المنزل.

تلك الأغنية التي يغنيها تثير شجني، وتذكرني بأبي وعمتي فاطمة، وبحكايات طفولتي.

نزفت عيناي دمعة. لاحظت شذا دمعتي وهي تتدحرج ببطء على خدي، سألتني «ما بك»؟!

شعرت أنني بحاجة إلى البكاء طويلاً، أذكر، يوم جئت دمشق أول مرة، شعرت بالغربة، كانت تبدو لي دمشق كبيرة وواسعة وأنني مرميٌّ فيها ككيس من الورق، تقذفه الريح من رصيف إلى

رصيف، كانت مشاعري مأساوية. بمرور الوقت ألفت دمشق، وعشقتها، وباتت عندي أجمل مدن العالم، تساءلت لو فكرت بمغادرتها هل أستطيع؟!

غطيت وجهي بكفيّ.

«علاء، كن قوياً، الحزن لا يناسبك. تذكر ما قاله لك الطبيب».

راح عزف مجد يعلو، بتقاسيم حزينة. قلت: «مجد، توقف عن العزف»!

أظنه يحاول الهروب مثلي من حزنه. صرخت به: «توقف»!

أمسكت بي شذا: «ما بك؟ اهدأ! لا ترهق أعصابك، القلب كالسماء قبل الرعد، في لحظة تبرق، وينفجر الرعد، ويسقط القلب».

توهج مصباح الكهرباء في غرفة نومنا، قالت شذا:

«جاءت الكهرباء، أشغِلْ نفسك بالحاسوب، وأنا سأحاول ترتيب المطبخ».

عند باب الغرفة توقفت شذا: «هل أعد لك كأساً من البابونج»؟

«لا... أسطوانة الغاز انتهت».

كان تيار الكهرباء ضعيفاً. ومتقطعاً. منذ شهر أحضر لي يوسف جهاز «ups» لتفادي انقطاع الكهرباء السريع الذي يذهب بما أكتبه قبل حفظه في الحاسوب، قمت رتبت طاولتي، ثمة هباب أسود يغطي سطحها. دائماً، تذكرني شذا بتنظيف الطاولة وترتيبها:

«علاء، هل من الضروري أن يكون الكاتب فوضوياً»؟

كانت الطاولة متوسطة الحجم من خشب الجوز، ولا تبدو منسجمة مع أثاث الغرفة البسيط والرخيص الثمن، والمتنافر في ألوانه. أذكر أنني اشتريتها قبل عشرين عاماً من سوق «الحرامية». لها ثلاثة أدراج مرصّعة بزخارف نحاسية، وضعت في الدرج العلوي ألبوم صور قديم، يضم صور عرسنا في بلدة «حضر» القريبة من الجولان في بيت خال شذا، وثمة صور لزيارتنا اليتيمة إلى لبنان، يومها حضرنا ملتقى مقاومة التطبيع في بيروت، منذ زمن لم أتفحص تلك الصور، ثمة صور في شارع الحمرا، وأخرى عند صخرة الروشة، وصور في (التلفريك) في جونية، وصور متفرقة لأولادنا وهم في أعمار صغيرة، وألبوم يحتوي على وثائق نجاح الأولاد في مدارسهم، ونماذج من دفاترهم ومسابقاتهم المدرسية، وألبوم ثالث، يضم صور والدي بلباسه العسكري مع أمي وإخوتي أحمد وعادل وبيامة

وعمتي فاطمة، وصورة تضمني مع سلمى على شاطئ ميناء مدينتنا الصغيرة، وتبدو في خلفية الصورة زوارق صيد، وصيادون وشباك، وثمة صورة لعمتي فاطمة، حرصت على تكبيرها ووضعها في أول صفحة من الألبوم.

قالت شذا يوم أحضرت الطاولة:

«جميلة وأنيقة وتليق بمنزل غير هذا المنزل الفقير، اللهم أعطنا المال لشراء بيت أفضل، وفي مكان أفضل».

«الحمد لله لدينا بيت هنا في دمشق، رحم الله أبي الذي كان السبب في بنائه، اشترى الأرض بقرض قدّمته مؤسسة الإسكان، وتابعنا أنا وشذا بناءه وإكماله».

بعد ثلاثين عاماً مرت على زواجنا، ما يزال المطبخ متواضعاً، وحمام البيت دون سيراميك، وخلاطات المياه عادية وتحتاج إلى إصلاح بين الحين والحين، ومياه التصريف عندما تنحبس، أحضر سائل «روح الملح» لفتح البلاليع، وقد نضطر من حين إلى آخر إلى إحضار السبّاك لإصلاح الأعطال في الحمام وفي المطبخ والمغسلة الوحيدة في البيت التي تنتصب بين الحمام ودورة المياه.

وفي الدرجين الآخرين من الطاولة أوراق قديمة، تركتها منذ زمن طويل ولم أعد إليها، ونسيت محتواها، كانت خاصة بأبي، احتفظت بها بعد موته ولم أقرأها، وثمة رسائل لم أعد أذكر من أين جاءتني، قالت شذا إنها لم تطلع عليها، وطلبت أن أقفل الدرج كي لا يطّلع عليها الأولاد: «لا أريد أن يرى الأولاد خصوصياتك».

لا أعتقد أن شذا لم تطّلع على الأوراق، أعرف أنها تدقق في أدق التفاصيل التي ترتبط بحياتنا.

أحياناً، أشعر أنها تفتش في ذاكرتي، وفي أحلام نومي، وفي رأسي، وتطرح أسئلتها عليّ بشكل مفاجئ لعلها تستطيع العبور إلى رأسي للبحث على جواب في أمر يدور برأسها.

قالت شذا: «ابحث عما يهمّك في الأوراق واحتفظ به، وارمِ الأوراق التي لا تهمك، تعبت الأدراج منها».

كان يرقد على الطاولة حاسوب، وإلى جوار الطاولة كرسيان قديمان من الخيزران.

أحضرت شذا الشاي بالنعناع.

قالت: «أرسلت ريم إلى بيت أم عسّاف لإعداد الشاي هناك، نحتاج إلى أسطوانة غاز، كيف ستقوم بتأمينها، أرسل يوسف، فأنت لا يمكنك أن تتسوّل بائع غاز من أجل أسطوانة، كيف فعلت بنا الحرب؟» وبكت. جاءت ريم، وقالت إن عليها أن تغادر إلى جامعتها، وعند الباب، قالت: «لا تفكرا بي، فأنا أقوى من الحرب»، وظلت تضحك.

قالت شذا: «ريم تذكرني بنفسي عندما كنت شابة».

قلت: «وتذكرني بعمتي فاطمة».

«كل شيء يذكرك بعمتك فاطمة، وماذا عني»؟!

أقسمت لها إنني يوم رأيتها أول مرة، قرأت في وجهها طيبة ورقة وحنان عمتي فاطمة.

ألم أقل لك ذلك مرات»؟!

«صحيح... علاء، الزمن مرّ سريعاً، البارحة تزوجنا، والبارحة ولد يوسف ومن بعده مجد، وأردنا الاكتفاء بهما، وبعد أربع سنوات جاءتنا ريم، كنا متضايقين يوم حملت بها، وخطر لنا أن نجهضها، وجاءنا خالي من قرية حضر وقال: «ما تفكران به

حرام، وقد يرزقكما الله بابنة جميلة تكون لكما خيراً من الأولاد الذكور، وكان ما تنبأ به خالي، فريم تعادل ألف صبي».

أذكر، عندما ولدت ريم، كان بودي أن أسميها «شادن»، لم تكن شادن الجاسم في ذاكرتي عندما قلت لشذا: نسمي الطفلة شادن... انتفضت شذا وسألت بعصبية:

«ولماذا شادن؟ أما زالت شادن الجاسم في ذاكرتك»؟!

قلت: «ألم ننتهِ من قضية شادن؟ مرّت السنوات وشادن تخيفك؟!...

لم تكن شادن أكثر من زميلة، أنت تغارين من ذاكرتك، غريبة! أطلقي على المولودة الاسم الذي ترينه مناسباً»!

تفتح وجه شادن في ذاكرتي.

بعد انتهاء العام الدراسي الأول في الكلية، خطر لي زيارة شادن في مكتبها بهيئة الاتصالات لوداعها على الرغم من أننا عصر اليوم الماضي التقينا، تفاجأت بي «ألم تسافر»؟! جئت لوداعك «عصراً التقينا» «اشتقت إليك».

بدت شديدة الارتياح لي، وقالت وهي تكاد تحتضنني «إنها أجمل مفاجأة لي في حياتي».

قلت: «وجدت نفسي قادماً إليك».

«وأنا قد أجد نفسي ذات يوم أطرق باب بيتكم».

تناولنا القهوة سريعاً، ومشت معي إلى الكراج، المسافة بين مكان عملها والكراج قصيرة جداً، أمام محل لبيع العصير شربنا عصير البرتقال، واشترت لي صحيفتين واحدة سورية وأخرى لبنانية من مكتبة قريبة «تتسلى بقراءتها في الحافلة». وأنا أصعد إلى الحافلة، وقفنا في الباب متقابلين، وأمسكت بيدي، ولم تقل شيئاً، كانت نظراتها على وجهي تقول كلاماً كثيراً، تمنيت أن «أجرؤ وأقول لها إنني أحبك، نادى علينا سائق الحافلة: «سنتحرك، اتركا حديث الغزل إلى وقت آخر».

لم تكن الرسائل المتبادلة بيننا خلال الصيف تحمل اعترافاً من أي منا بالحب، تتمشى فيها مشاعرنا على ضفاف الاعتراف بالحب، بدت حذرة، أظنها، كانت تخشى أن تسقط الرسائل في يد أحد من أهلها، هي أخبرتني من قبل «لا تزال عندنا عقيدة الذبح».

يوم قرأت عمتي فاطمة بعض رسائل شادن، قالت «هذه البنت تحبك».

قلت: «نحن زملاء وحسب».

«لا، هي تحبك، عندما تعود إلى دمشق، كن جريئاً وقل لها إنني أحبك».

في منتصف أيلول عدت إلى دمشق. عندما وصلت إلى الكراج، كانت الساعة تتجاوز الثالثة بعد الظهر. وجدت شادن بانتظاري، قالت: منذ البارحة وأنا أنتظرك، وأفكر كيف سأراك، تعال نجلس في مطعم قريب، ألست جائعاً»؟

جلسنا في الركن المواجه للشارع، المزدحم بالسيارات والمارة، وبنداءات الباعة على الأرصفة، تحركت كفي نحوها، وكادت تلامس وجهها، كانت حركتي عفوية جداً، ابتسمت، وأمسكت بكفي، «علاء، هل كنت تتذكرني»؟

«كثيراً».

«تظل أجوبتك مختصرة، وكأنك تهرب من شيء».

قدمت لها صدفة بحرية معلّقة بسلسال فضي «هي لك ذكرى من البحر».

قدّمت لي أيقونة صغيرة، من الخزف الملوّن بالأبيض والأزرق كانت معلّقة إلى عنقها حفر عليها صورة شجرة نخيل على ضفة نهر».

يوم ولدت ريم، علّقت الأيقونة على سريرها، لم تكن تعرف شذا دلالات تلك الأيقونة ومن أين جاءتني، بالتأكيد شاهدتها مرات في درج طاولتي قبل ولادة ريم، ويوم كبرت ريم وضعتها في عنقها، وقلت: لها:

«احتفظي بها، هي ذكرى غالية».

كانت شذا تسمعني، سألتني«ممن»؟!

قلت: «من عمتي فاطمة».

-٦-

«على المرء ألا يكون نزقاً، وألا يملأ رأسه بقناعات باتت من الماضي، نحن أبناء هذا الحاضر المختلف عن زمنكم - هذا رأيي، وأظنه رأي يوسف وأمجد». هذا ما قالته لي ريم بعد حوار حاد بيني وبين أمجد.

لم تتأثر ريم بالظروف التي أحدثت تحولات خطيرة في نفسية مجد، وإلى حد ما في نفسية يوسف، كان رأي ريم «هذا هو قدرنا في النهاية».

كانت شذا تستمع إلى ما تقوله ريم، ولم تشأ أن تردّ، أو أن تعطي رأيها فيما قالته، دخلت إلى غرفة نومنا، وغمرت وجهها بكفيها. أعرف وضع ريم في تلك اللحظات التي تغمر فيها شذا رأسها بكفيها. في هذا الصباح بعد حوار حاد بينها وبين مجد، حول علاقته بابنة زهير المكتبي، ورغبته في مغادرة الوطن بذريعة الحرب والأوضاع الأمنية، تأزمت نفسياً، وحاولت أن أخرجها من تأزمها، قلت: وأنا أمرر أصابعي في شعرها في نوع من المداعبة:

«لماذا البكاء، الحياة اليوم قاسية، وعلينا أن نتحمل أوجاعها كما تقول ريم، ريم هي أكثرهم وعياً ونضوجاً»، مازحتها «لأنها تشبهك في طباعك، كنت عاقلة، وستظلين عاقلة».

علا صوت بكائها، وقالت: «لم أكن أتصوّر أننا سنصل إلى هذه اللحظة التي نفقد فيها قدرتنا على قيادهم، من أين طلع علينا زهير مكتبي مرة أخرى؟!».

كانت شذا في الآونة الأخيرة تشكو من حموضة في معدتها، وتزداد بعد كل حوار حاد مع أحد الأولاد، أو عندما تتأثر بسقوط القذائف في الحي، أو برؤية المشاهد المروّعة التي يعرضها التلفاز، وعند سماعها حكايات أم عساف عن أوجاع الناس.

قلت: «تماسكي»

قالت: «أعرف أن عليّ أن أكون أكثر تماسكاً، الأمر ليس بيدي».

كانت ريم تغني في غرفتها وهي تعزف على غيتارها أغنية فيروزية...

تؤمن ريم أن الغناء والعزف هما أفضل الأسلوبين للخروج من الضجر والملل ومن الحرب الموجعة، وكنت أوافقها الرأي، وأحب اختياراتها للمعزوفات والأغاني، في بعض الأوقات، أشعر

بالانزعاج من أي صوت حتى من غناء ريم، كما أنني في تلك اللحظة، كنت أشعر أن رأسي محصور في وعاء من الفولاذ، ينضغط على جدار رأسي من كل الاتجاهات، ولا أستطيع الإفلات من هذا الحصار، أنادي على ريم لتتوقف عن العزف والغناء. ظلت تغني وتعزف وكأنها لم تسمعني، علا صوتي بغضب «توقفي توقفي».

قالت شذا: «ما بك، ماذا حدث لك»؟!

«لا أدري، أكاد أجن»

جلست وراء طاولتي، وتركت رأسي على طرف الطاولة. احتضنتني شذا من الخلف، وسألتني بهدوء ما بك؟! لا أريد أن أراك حزيناً، أنت رأس هذه العائلة، عندما يتصدع الرأس ينهار الجسد كله ويصاب بالشلل والتمزق، وراحت تبكي وتقول: «يكفيني حزني وقلقي. «أخبرتها بأنني أشعر بفقدان رأسي، وانفصاله عن جسدي». عادت تترك رأسها على كتفي: «ليس مسموحاً لك أن تنهزم».

«أحتاج إلى حبة مسكّن».

«لا، أنت بخير، والطبيب نصحك بالابتعاد عن المسكنات.

في الواقع، منذ زمن أشعر ببوادر اكتئاب، وأظن أن شذا تعيش الحالة نفسها، منذ أيام، أخبرتني أختي يمامة أنها تعيش

حالة اكتئاب حادة، وأن الحياة عندها باتت قاسية، قذائف الهاون تسقط بين الحين والحين حول بيتها القريب من مطار حميميم قادمة من جهة جسر الشغور ومن بلدة سلمى في الحفة، وفي كل مرة يسقط جرحى وشهداء، البارحة سقطت قذيفة على بيت جيرانها، وقتلت صاحب المنزل وهو يهم بالخروج من بيته إلى عمله، وليس لأولاده وزوجته اليوم سوى رب العالمين».

تركت رأسي على الطاولة وأغمضت عيني بقوة، وكأني أعتصر كل ما في رأسي من حزن وغضب وقهر وأوجاع، جاءت ريم، وتلمّست رأسي بهدوء، تلك الحركات الحنونة من ريم تشعرني بالهدوء، تذكرني بحنان عمتي فاطمة، كنت عندما أغضب من واقعي في بيتنا ومن أمي أذهب إليها في قريتها، تعاملني بحنان وكأنني طفلها.

سألتني ريم وهي تتلمس رأسي وعنقي: «بابا ما الذي يحزنك»؟!

«لا أعرف ما الذي سيفرحني»!

«سأعزف لك مقطوعة «شآم»، أعرف أنك تحب تلك الأغنيات الوطنية، اليوم، يحبون الأغنيات الراقصة، والأغاني والألحان الغربية، ألم أقل لك إن أشياء كثيرة تغيّرت، حتى في الذوق الفني والثقافي، سأعزف لك الأغنية».

قلت: «لا، سأكتب مقالة لصحيفة محلية، اقترحني حسام للكتابة فيها، ونصحني أن أكتب مقالات تمزج السياسة بالقضايا الاجتماعية، قال ناصحاً: «علاء لم تعد الكتابة في السياسة المباشرة تثير اهتمام القراء، الناس تعبوا من السياسة، يحتاجون إلى موضوعات جديدة، ولغة هادئة وشفافة».

قالت ريم: «كلام عمي حسام في مكانه، الجيل الجديد يريد موضوعات جديدة، وبلغة جديدة، كل ما يكتب في الصحف متشابه في الأسلوب واللغة والمنهج، أنا ذاهبة إلى غيتاري لأعزف لك أغنية شآم، اضحك، اضحك من قلبك، نحن لا نستطيع أن نغيّر هذا الواقع إلا بالصبر والصمود والفرح».

تتماوج ذاكرتي مع معزوفة ريم على الغيتار «شآم»، هذه الأغنية بالذات تذكرني بحزن أبي، والأغنية ليست حزينة، سبحان الله، وعلى الرغم من ذلك تجعلني أذكر حزن أبي. يوم جاء أبي إليّ في الجامعة، هو لم يكن يأتي إلا نادراً مرتين أو ثلاث مرات جاءني طوال وجودي في الجامعة لتفقدي ولإعطائي بعض النقود، كنا نجلس في مقصف الجامعة، وأحياناً نجلس على مقاعد وضعتها الكلية في الساحة، مرة واحدة رافقته إلى نادي الضباط، يوم جاء أول

مرة إلى الجامعة. جلسنا على مقعد خشبي في ساحة الكلية، كان الجو ربيعياً، وثمة غيوم بيضاء تظلل دمشق. بدا وجهه متعباً، قرأت في عينيه حزناً أكبر من حزنه المعتاد، وبدا شيب ذقنه وشعره رأسه حاد البياض، بكيت، لم يسألني لماذا تبكي، ولم يرفع رأسي إليه، يومها جاءت شادن، وسلّمت على أبي، وقدمت له نفسها، وأخبرته أن والدها كان زميله في الكلية العسكرية».

بعد أن غادرتنا شادن، سألني عن علاقتي بها، أخبرته علاقة زمالة فحسب، قال: «كيفما كانت علاقتك بها، تبدو لي هذه الفتاة جيدة، وأظنها تحبك، احرص على استمرار علاقتك معها».

جاءني صوت شذا من المطبخ:

«علاء ألم تأت لنا بجرة الغاز».

قلت: «ليس في يدي حل، الغاز مفقود، والأسطوانة في السوق السوداء مرتفعة السعر».

وضعت إبريق الشاي على السخّان الكهربائي، وقالت:

«نحن وحظنا، قد تنقطع الكهرباء في أي لحظة».

اتجهنا إلى الشرفة لتناول طعام الإفطار.

بدا هدوء دمشق في هذا الصباح استثنائياً، أمسكت شذا بأصابعي ورفعتها إلى فمها في نوع من المداعبة التي تمارسها عادة. «علاء، لا أستطيع تحمّل حزنك، اضحك من أجلي، وافرح من أجلنا كلنا، بت أخاف عليك من حزنك».

قلت: «شفتاك ساختتان».

ضحكت. «علاء، خطرت لي فكرة، لماذا لا يكون لك صفحة على الفيس؟ الجميع صارت لهم صفحات، وأنت كاتب، على الأقل تخرج من وحدتك، يقولون الحزن مقدمة للاكتئاب. قل ليوسف أن يفتح لك صفحة».

أخبرتها أن وقتي ضيق، وكما ترين أن الكهرباء لا تأتي إلا نادراً. افتحي أنت لك صفحة، ونحن معاً نتابعها، فليس ثمة فرق بيننا. سألتني «ومن سيطبخ، وينظّف ويجلي ويغسل، هل تقوم أنت أو أولادك بذلك»؟

بدت علائم الهدوء على شذا، وربما أظهرت لي ذلك لتخرجني من حزني، أخبرتني أنها اشتاقت إلى الجلوس في الشرفة، تتحرك ريح هادئة، وتهزّ أغصان الياسمينة الغضة يميناً ويساراً. وجاءت

أم عسّاف، أخبرتنا أنها تشتاق إلينا، ونحن أسرتها، وأنها عندما رأتنا في الشرفة، جاءت، وأحضرت معها عدة لفافات من الفلافل، وقالت: «اشتهيتها لكم، أليس لديكم شاي، يقولون الشاي والفلافل نعمة من الله».

وتضحك «يوم كنت صغيرة، كنت أشتري لفافة الفلافل بثلاثة فرنكات، اليوم، نشتريها بمئتي ليرة، ويتصاعد سعرها مع تصاعد سعر الدولار، علاء، ما علاقة الدولار بالفلافل»؟!

قلت: «دعينا نأكل لفافة الفلافل بهدوء».

«معك حق، أين الشاي».

«انتهت أسطوانة الغاز».

«سأخبر عساناً أن يؤمن لكم واحدة من السوق السوداء. علاء، لماذا أطلقوا عليها اسم السوق السوداء، ولم يقولوا السوق البيضاء؟ هي في هذا الزمن سوق بيضاء».

قلت: «ربما لأن كل شيء فيها يتم خفية عن أعين الحكومة وكأنه يحدث في العتمة».

راحت تضحك «لم يعد ثمة شيء يحدث في العتمة».

وتأملت أم عسّاف عريشة الياسمين: «الحمد لله، لم تصل الحرب إلى الياسمينة».

قالت شذا: «فال الله ولا فالك. الياسمينة فألنا».

عندما زارنا حسام في المساء، أخبرته شذا أنني أرفض فتح صفحة على الفيس. قال حسام: «علاء، الصفحة ضرورية، تنشر فيها مقالاتك ورواياتك، وتتابع ما يكتبه الآخرون عنك، الإعلام الورقي تضاءل دوره، ولم تعد الصحف تصل إلى أكشاك البيع في العاصمة وانقطعت الطرق إلى كثير من المدن والمحافظات، وأن شبكات التواصل الاجتماعي اليوم نافذة الكاتب للنشر. فأنا أنشر حلقات برنامجي «أوراق» على الفيس، وحجم المشاهدات لها كبير».

قلت: «سأوافق نزولاً عند رغبتك».

تمنت عليّ شذا أن تكون صورتي على الغلاف بربطة عنق، قلت:

«ولماذا ربطة العنق»؟

«ما الذي يمنع من أن تبدو أنيقاً وعصرياً»؟

«ما علاقة ربطة العنق بالمعاصرة».

احتضنتني ريم، وقبلتني «بابا أنت جميل، سأقول لزميلاتي في الكلية هذا أبي، وقد تختطفك واحدة منهن، الموضوع في الزواج اليوم عشق الصغيرات للرجال الكبار».

فوجئت بصورة الغلاف بربطة عنق حمراء، ذات خطوط وردية.

قلت: ليوسف: «استبدل صورتي هذه بصورة أخرى».

ضحكت شذا: «لا».

مازحتها، «قد تأخذني إحدى نساء الفيس»!

شدتني من شعري: «لن تأخذك امرأة مني».

نصحني حسام بتجنّب الحوارات الطويلة، ولا سيما في مسائل السياسة والحرب:

يتصادقون على الفيس، ويختلفون على المواقف، وتدور حوارات عبثية، في بلادنا يتأبط المرء أفكاره كيفما كانت كما يتأبط حقيبته، لا جدوى من الحوار، ومن المحتمل أن تشكل الحوارات ردود فعل حادة، ومواقف حادة مع كثيرين، هنا يفقد الاعتدال وظيفته وكما يقول الممثل المصري عادل إمام «إما أبيض وإما أسود».

أتصفح تعليقات الأصدقاء على منشور كتبته مساء، في كل صباح قبل أن أذهب إلى عملي، بعض التعليقات لها طابع المشاكسة السياسية، وبعضها لها طابع المشاكسة العاطفية... ثمة نساء بأعمار تجاوزت الأربعين يشاكسنني، أخبرت حساماً بذلك، فضحك «مازلت في أول الرقص، هذا وضع قائم على الفيس، ثمة جوع عاطفي يتنفس من رئات التواصل الافتراضية، هذه هي حال المجتمعات الشرقية المكبوتة».

كانت ربطة العنق الحمراء محط تعليقات متعددة، ثمة من رأى فيها حالة من المراهقة المتأخرة، وثمة من رأى أنها دليل على روح الشباب، وثمة مشاكسات لها طابع المرح تأخذني خارج أخبار التلفاز ومشاهد الدم والقتل، وخارج الحوارات التي تصاعدت في الآونة الأخير بين مجد وأمه.

في صباح هذا اليوم، جاء مجد إلى أمه وهي تعدّ طعام الفطور، أخبرها أنه حصل على جواز سفر، وسيغادر إلى مصر، وأن زهير مكتبي وعائلته سافروا إلى القاهرة، وسيلحق بهم، وموضوع متابعة اختصاصه هنا ليس مهماً، إن عادت الأوضاع إلى طبيعتها يعود لمتابعة اختصاصه، وقد يتابع اختصاصه في القاهرة أو في أي مكان يذهب إليه.

قالت شذا: «قل، في أي مكان تذهب إليه ابنة زهير المكتبي»!!

«ما المشكلة»؟!

اقتربت من مجد، ودفعت به إلى خارج المطبخ، وصرخت في وجهه:

«اذهب إلى الجحيم، لماذا تخبرنا؟!، أنت تسعى إلى تفجير غضبنا، ستكون سبباً في الجلطة الدماغية لي ولأمك، تعبنا منك ومن حوارك، زهير المكتبي هو من يحرّضك، هو يكرهني من أيام الجامعة، يومذاك لم ينجح في هزيمتي، هو اليوم يهزمني بك، وفي النهاية، هو يستهدفك وسيرميك كحذاء من أحذيته، أنت لا تعرف هذه النوعية من البشر».

أمسكت بي شذا: «أنت تفجّر الموقف، اتركه».

قلت: «فليذهب، تعبت منه».

مرّ أكثر من أسبوع ولم يأت مجد إلى البيت، قلت لأخيه يوسف:

«اذهب وابحث عنه» همس لي: «سافر مجد وانتهى الأمر».

قلت: «اترك هذا سراً ولا تخبر أمك».

بات الفيس مجالاً لي للهروب من قلقي، كانت شذا تتابع ما أكتبه من منشورات وجدانية، وفي بعضها مقاربة لأحداث الحرب وتأثيراتها في الواقع والناس. راحت تظهر بعض التحولات في سلوك الناس في الحي وفي مكان عملي وفي الشارع، لم أقرأ انزعاج شذا من تلك المشاكسات العاطفية التي ترسلها بعض الصديقات على «الماسنجر»، وعلى الرغم من ذلك سألتها إن كان ذلك يزعجها لأوقف الصفحة، أو لحظر تلك الصديقات. أخبرتني أن هذه الأمور لا تعنيها، فهي مجرد همسات افتراضية.

على الرغم مما تقوله شذا في هذا الأمر، كان لديّ إحساس أن تلك التعليقات لا تريحها، وبحسب رأيي حسام «المرأة تظل امرأة، الفرق بين امرأة وأخرى، أنَّ ثمة من تظهر ردة فعل غاضبة وثمة من تتناول الأمر بهدوء، حرصاً منها على سلامة مركب الحياة الزوجية من الغرق».

عندما تملّ شذا من متابعتي على الفيس، تتجه إلى الاستلقاء على السرير، وتغرق في إغفاءة إلى ما بعد العصر، وعندما تنهض تسألني:

«ما رأيك بفنجان قهوة»؟

وأجيبها «وهل بإمكاني أن أرفض دعوة امرأة جميلة على فنجان قهوة»؟!

«أي امرأة»؟!

«زوجتي فحسب».

تضع فنجان قهوتي على طرف الطاولة، وتجلس إلى جواري على كرسيها المعتاد وفنجانها في يدها، ليس ثمة مكان لفنجانها على الطاولة، فهي تزدحم بالأوراق والكتب والصحف وأقلام حبر وأقلام رصاص تتناثر جميعها على الطاولة بشكل فوضوي.

تتأفف شذا من وضع الفوضى على الطاولة، تترك فنجانها على طاولة صغيرة إلى جانب السرير، وتبدأ بترتيب الأوراق والكتب، وتنقلها إلى علبة كرتونية في زاوية الغرفة، عندما تمتلئ تلك العلبة عادة، تقوم بنقلها إلى غرفة أخرى فقد بات في كل زاوية من زوايا الغرف في المنزل أكثر من علبة كرتون مملوءة بالكتب والصحف.

غالباً... تبرد قهوتي، وأنا غارق في الكتابة أو في القراءة.

تهزني من كتفي: «علاء... استرح قليلاً، واشرب قهوتك على مهل».

وعندما أظل غارقاً في الكتابة، تمسك بيدي: «قهوتك، لن تهرب الكتابة منك».

فأمسك بفنجاني، وأستدير نحوها، وأرشف رشفة من قهوتي: «قهوتك لذيذة».

وأتأمل وجهها، عندما لا تكون شذا حزينة أو قلقة، يبدو وجهها متفحتاً كوردة، تهرب نظراتها مني نحو المدينة، وتغرق في صمت، عندما تعيش شذا هذه الحالة من الصمت، عليّ إيقاؤها في صمتها... وعندما تأتي إلينا ريم في غرفتنا، تمسك بفنجان أمها وتحتسي منه رشفة كحالة من المداعبة. منذ كانت ريم في الرابعة عشرة من عمرها وهي تحرص على مداعبتنا بكلمات رقيقة، وبمواقف طريفة، وتفرح من قلبها عندما ترانا ضاحكين .

جاءت ريم وأخذت رشفة من فنجان أمها «ما به الجميل يبدو حزيناً»؟!

تضحك لها شذا «أنا بخير».

تقبّل ريم أمها ثم تتجه إليّ، «ولأبي قبلة».

في كل يوم، وبعد مرور نحو ثلاثين عاماً على زواجي من شذا، بات لديّ قناعة كاملة أن شذا هي المرأة الوحيدة القادرة

على منحي هذا الهدوء الذي أعيشه. أتساءل مرات، ودائماً «ماذا لو تزوجت من ريتا؟! نعم، ريتا جميلة وشديدة الأنوثة، لكنها من عالم آخر غير عالمي ومختلفة بمزاجها عن مزاجي، بالتأكيد ستكون حياتي معها مضطربة، وربما كنا انفصلنا قبل أن نكمل عامنا الأول، أو ماذا لو تزوجت من ماجدة التي تفيض بالصخب واللامبالاة؟ أو من نرجس التي تحوّل الحوارات العادية حول أي موضوع إلى حوارات فلسفية طويلة؟ أو من بتول ابنة خالي نسيم؟ بتول كنت أجدها الأكثر قرباً من مشاعري، وعلى الرغم من ذلك لم أقترب منها لأن أبي نصحني بالابتعاد عن خالي.

«ماذا لو تزوجت من سلمى التي تفتحت مشاعري الأولى لها؟ أذكر، يوم جاءت سلمى لزيارتي في الجامعة، رأتها شذا، لم تكن شذا يومذاك بالنسبة إلي أكثر من زميلة، شربنا ثلاثتنا القهوة معاً في مقصف الجامعة، علّقت شذا على لقائي مع سلمى ووصفته «باللقاء الخطأ» ولم تفسّر السبب، وأنا لم أسألها، لم يكن رأيها يعنيني في هذا المجال، عندما جاءت سلمى ثانية لزيارتي في ليلة رأس السنة رافقتنا شذا إلى مطعم صغير، يقدّم الوجبات السريعة، وكان الجو ماطراً... وتساقط المطر بغزارة، وقفنا تحت

مظلة على الرصيف، قبلتني سلمى على وجهي، أدارت شذا ظهرها لنا في تلك اللحظة. حاولت إبعاد سلمى عني، راحت سلمى تضحك «هي تعرف أنني أعشقك، ما المشكلة في أن أقبلك أمامها وأمام دمشق كلها، هل الحب حرام»؟!

يوم صارحت شذا بحبي لها، لم تسألني إن كنت لا أزال أعشق سلمى، قالت: «المهم في الحب الثقة، ونسيان الماضي، من يظل في الماضي لا يستطيع أن يبدأ حياة جديدة وحباً جديداً».

يوم قرأت شذا اسم سلمى في مخطوط روايتي «قرنفلة المساء» بعد سنوات على زواجنا، لم تقل شيئاً ولم تعلّق، ولم تطلب تغيير الاسم، قرأت امتعاضاً على وجهها... بتّ أعرف حساسيتها من اسم سلمى وإن كان مجرد اسم في رواية... لم أحاول أن أقنعها بأنه مجرد اسم، استبدلت اسم سلمى باسم «فتاة النرجس». يوم أعادت شذا قراءة النص، قالت: «جميل اسم فتاة النرجس». لم تسألني إن كان ثمة رابط بين علاء الحقيقي وبطل الرواية. وفي رواية «عازف المزمار» التي نشرتها في أول سنوات الحرب، ثمة تشابه كبير بين بطل الرواية موسى وبيني، كل التفاصيل العاطفية والجسدية والحياتية متشابهة تماماً، وبطلة الرواية «ماريا» تشبه شذا

في تفاصيل كثيرة، لم أكن أقصد هذا التشابه، ولم أتنبه إلى ذلك إلا بعد أن قالت شذا:

«كان عليك أن تستبدل اسم البطل موسى بـ علاء وبطلة الرواية ماريا بـ شذا، عندئذ ستكون الرواية أكثر اقتراباً من الواقع».

أمسكت بأصابع شذا: «معك حق».

لم تعد أصابع شذا ناعمة وملساء ومدببة، ولم تعد كفها لينة ودافئة، ثمة تجاعيد على ظهر كفها، ودوائر خفيفة حول عنقها وعينيها، وبدت أقل طولاً مما كانت عليه في زمن الجامعة، وأكثر بدانة، واتسعت دائرة خصرها.

«لماذا تنظر إليّ هكذا»!؟!

قلت: «تظلين جميلة، وحلوة وجذابة كالياسمين».

«كبرنا على الغزل».

«نحن في بداية عشقنا».

«لا ترفع صوتك، قد يسمعك الأولاد».

وتذبل أجفانها على عينين سوداوين جميلتين.

عندما تفيض مشاعر شذا العاطفية، تتحول مسارات الكلام إلى عينيها، وتعبر تنهداتها إليّ.

«شذا، اشتقت إليك».

«أعرفك عندما تبدأ بغزلك».

تتجه إلى الباب، وتغلقه: «الأولاد صاروا يفهمون».

لم تعد شذا تحب استفاضة الكلمات المكتنزة بالمشاعر العاطفية:

«علاء، أنا كأزهار بخور مريم، التي تنمو وتتفتح ناعمة وخجولة وفيها حياء، عندما تلمسها بهدوء تعطيك عطرها، الحب الذي يفيض قوياً وجارفاً كالسيل يجفّ سريعاً، هي فورة وتتلاشى، أذكر يوم كنت في الجولان فاض نهر بانياس، وغمر الأراضي، وجرف ما حوله، لا أريد لفيضان الحب بيننا في لحظة ما أن يجرف أشياءنا الجميلة وهدوءنا».

«ماذا تقصدين»؟!

«لاشيء».

«هل هي كتابات الصديقات على الفيس»؟!

«إلى أين ذهب فكرك؟!... هذا الأمر لا يشغلني، ثقة أو لا ثقة».

بمرور الوقت بت أنا وشذا متشابهين في نظرتنا إلى العلاقة الزوجية وإلى كل ما يحيط بحياتنا، وتصفنا أم عسّاف بطنجرة ووجدت غطاءها.

كانت أم عساف امرأة خمسينية من قرى ريف حمص، متوسطة الطول بدينة سمراء الوجه، ذات شعر أجعد، كثيرة الضحك لأقل سبب، تحب المطالعة، لم تكن تحدد نوع الكتب التي تقرؤها، تمتلك لغة سردية شيقة، تروي لنا عندما تزورنا حكايات طريفة عن علاقات المرأة والرجل، غير مبالية بردود فعل شذا التي تتأفف من تلك الحكايات، وتردّ أم عساف على شذا عندما تتأفف من حكاياتها: «خلقني الله هكذا، أحب المزاح، وقلبي أبيض كالياسمين».

حصلت على الثانوية في مدرسة قريتها، بعلامات عالية، لم تدخل الجامعة، لأنها تزوجت من قريبها قاسم رجوب المتطوع في الجيش. في مطلع حياتها انتمت إلى حزب يساري، كانت توزع المناشير السياسية في الليل، وتفهم أن اليسارية في الفكر والموقف انتصار على الفقر والقهر والظلم:

«علاء، كان الفقر يعض مشاعرنا قبل أجسادنا، أيام قاسية، أرجو الله أن تُذكر ولا تُعاد كل شيء تغيّر، الناس اليوم فقراء

وأغنياء، يبدو أن المجتمع هكذا دائماً، أناس فوق، وأناس تحت، وبين الاثنين طاحونة الحياة تدور، ثمة من يسقط إلى أسفل، وثمة من يصعد إلى أعلى».

لم تكن أم عساف امرأة عادية في تفكيرها وثقافتها... وهو الأمر الذي جعلني أشعر بتميزها، ويدعوني للحوار معها.

استشهد زوجها في أحد الاجتياحات (الإسرائيلية) للجنوب اللبناني.

اشترت أم عساف، بالمبلغ الذي حصلت عليه عن استشهاد زوجها، بيتاً إلى جوار بيتنا، مكوناً من غرفتين وملحقاته، تحيط به مساحة صغيرة من الأرض، تزرعها بالبقدونس والنعناع وبعض الخضار والورود. لها ولدان ذكران، درسا في مدارس أبناء الشهداء، أحمد ضابط على أبواب الترفيع إلى رتبة نقيب في سلاح المدرعات بوحدة عسكرية تتمركز على أطراف تل الحارة المطلّ على الجولان المحتل، وعسّاف أكبر من أحمد بسنتين، ويعمل موظفاً في مؤسسة عمران، وبعد انتهاء دوامه يعمل على سيارة أجرة يملكها رجل في حي جرمانا.

افتتحت أم عساف بعد بدء الحرب في غرفة من بيتها الصغير محلاً لبيع ملابس (البالة)، تأتي بقطع (البالة) المنتقاة من محلات بيع (البالة) في الأحياء القريبة من الحي، وتبيعها لنساء الحارة. وفي كل مرة تحضر أم عسّاف ملابس (بالة) تنادي على شذا:

«تعالي واختاري ما تريدين قبل أن أقوم ببيعها، الأقربون أولى بالفائدة».

مع الحرب، بدأت تتغير الحياة في حي المزة ٨٦، بدا الحي كبركة ماء راكدة، وانقذفت فيها صخرة، تحرّك الماء وتماوج بقوة في كل الاتجاهات، فقد انتشر بيع الخضار والألبسة على الأرصفة، وافتتحت محلات تجارية في بعض المنازل، فقد بات من الصعب على كثيرين في الحي شراء احتياجاتهم من الأسواق القريبة، وظهرت نساء يتسولن على أطفالهن، جئن من أحياء أخرى، وبدت ملابس الرجال والنساء في الحي توحي بالفقر، وغادر كثيرون الحي إلى مسقط رؤوسهم، وثمة من غادر الوطن إلى تركيا أو الأردن أو لبنان تحت عنوان الهروب من الحرب، وكانت تلك البلدان تشجّع هروب السوريين إليها، تزجهم بعد وصولهم في مخيمات فقيرة ترعاها جهات لها طابع سياسي.

ذات يوم، رأيت جارنا أبا صفوان يبحث في حاوية القمامة بحي المهاجرين البعيد عن حينا، كان أبو صفوان ذات يوم يعمل شرطياً، وبعد الحرب، لم يعد راتبه التقاعدي يكفيه، افتتح بسطة على الرصيف في حي جرمانا، يبدو أنه لم يوفق في ذلك.

أدار أبو صفوان ظهره لي، وعندما اقتربت منه، بدا مرتبكاً ومحرجاً، وقال: «أليس هذا أفضل من التسول؟!».

وبكى... لم أكن بعد صرفت من راتبي شيئاً، كان لا يتعدى العشرين ألفاً، أمسكت بعض راتبي، وقدمته له، رفض: «وأنت لديك عائلة، كلنا في الحال سواسية».

وضعت الأوراق النقدية في جيبه بقوة:

تمنى عليّ ألا أخبر أحداً في الحي عنه «لدي شباب وبنات، قد يحرجهم ذلك».

يوم أخبرت شذا عن أبي صفوان، جمعتْ بعض الملابس القديمة وأعطتها لزوجته.

عندما عادت شذا أخبرتني أننا مازلنا بخير، فبيت أبي صفوان يثيرون البكاء.

«كم تخفي دمشق في جوفها من الفقر؟! الناظر إليها من الخارج، يظن أنها مدينة من مدن ألف ليلة وليلة، قصور، وسيارات، وحدائق، وأضواء».

غاب أبو صفوان عن الحي، أكثر من عام. اعتقد كثيرون أن أبا صفوان اختطف من المسلحين، وربما انضم إليهم، وثمة من قال إنه تطوّع في فصيل وطني للمقاومة، وهكذا صار وضع أبي صفوان حديثاً، حتى إن زوجته أعلنت أنها لا تعرف شيئاً عن غيابه.

-٧-

في الساعة تقارب الثامنة صباحاً، لم يكن الجو بارداً على الرغم من أن شهر شباط في أوله، وهذا اليوم بالذات بدا لطيفاً بعد شهر كامل من البرد والمطر والهدوء، فمنذ المساء لم تسقط قذائف على الحي، وهي حالة نادرة. هذا الهدوء، جعل شذا مستغرقة في نومها، تفقدت يوسف في سريره، لا يزال يوسف نائماً، هو لم يأت من عمله في محطة الوقود حتى الفجر.

عندما فتح الباب، استيقظت، وكان صوت المؤذن يعلن عن صلاة الفجر.

سمعت «ريم» تعزف على غيتارها بهدوء مقطوعة «بحيرة البجع».

عادة، تلك المقطوعة تبهجني، أوّلَ مرة سمعتها كنت أنا وشادن في مقهى بدمشق القديمة، يومذاك لم أكن أعرف المقطوعة ولمن هي، لكن شادن أخبرتني بها، وأخبرتني أيضاً أنها تعزف على الكمان، وتعلّمت ذلك من أمها التي تعمل معلمة موسيقا.

في السنوات الأخيرة، تغيّر إحساسي بتلك المعزوفة، وبالمعزوفات التي تعزفها ريم، جميعها كانت تثير فيّ حزناً يتجه إلى ذاكرتي. في الآونة الأخيرة، قال لي عادل: «ثمة أمر يقلقك، أو يخيفك، حاول أن تهرب منه، سألته «إلى أين الهروب»؟! كعادته راح يضحك، وتظهر أسنانه الصدئة، ثمة أضراس في آخر فمه اقتلعت ولم يقم بتركيب أضراس بديلة، قال: «اهرب إلى امرأة أخرى غير شذا».

عندما عدت إلى غرفتي بعد أن استحممت بماء فاتر، وجدت شذا بانتظاري، ابتسمت: «نعيماً»، وتلمست وجهي، وطبعت على وجهي قبلة، وسألتني: «لماذا ذقنك طويلة، وشعر رأسك طويل أيضاً!؟. علاء، إهمال الإنسان لنفسه يدفع به إلى الاكتئاب أريدك كما كنت يوم تعرّفت إليك، كنت أنيقاً وجميلاً، كلهن كن يقلن ذلك، وكنت أغار عليك من كلامهن على الرغم من عدم وجود حب بيننا، كنا زملاء فحسب، كنت تشعرني بذلك، وأنا كنت أعشقك، وأخفي هذا العشق.

في الواقع، كنت أكره أن يكون شعر ذقني طويلاً، وأكره أن يطول شعر رأسي أكثر من المعتاد، ونحن ندخل في السنة الثالثة للحرب،

أشياء كثيرة تغيرت في مزاجي وفي تصرفاتي في البيت وخارجه، في البداية، كان هذا الإهمال لنفسي يعني لنا حالة سلبية، وبعد ذلك اعتدت على ذلك، حتى إن شذا لم تعد تلوّن شعرها، وظهر الشيب في شعرها كثيفاً، وبدت وكأنها كبرت سنوات، وهو أمر لم أره جيداً، وعندما قلت لها رأيي هذا، هزّت رأسها وسألتني: «ما المشكلة؟ نحن في حرب سرقت كل شيء جميل في حياتنا، هل تراني أصبحت عجوزاً؟!». قلت: «لا، أنت أجمل الجميلات».

ضحكت، «وإن كان في كلامك مجاملة، لكنه يريحني، لا تفكر بي، أنا مرتاحة لوضعي، ومع ذلك من أجلك سأذهب إلى الحلاقة اليوم، وهذا سيكلفني أكثر من ألف ليرة نحن بحاجة إليها».

لم تكن شذا تتوقف عند مظهري عامة قبل اليوم منذ بدأت الحرب، لا أدري، لماذا توقفت في هذا الصباح عند شعر ذقني الطويل، وقميصي الذي لم يكن مكوياً، وبنطالي الذي بدا قديماً وحذائي الذي لم تلامسه (البويا) طوال عمره الذي قارب السنتين إلا مرة أو مرتين؟ في الأولى في محل بيع أحذية (البالة) عند أم عساف، وفي المرة الثانية عندما قالت شذا: «امسحه، أنت هكذا كأنك تقول للناس زوجتي مهملة، والبس قميصاً آخر، واحلق

ذقنك قبل أن تذهب إلى عملك في كل صباح، صحيح أننا كبرنا، ولكن المظهر الجميل يعطي صاحبه قيمة، أو على الأقل يعطي شعوراً لدى الآخرين أنه أنيق في داخله كما هو أنيق في مظهره».

بدت بثوبها الأبيض الطويل شديدة الأناقة، وبدا خصرها أكثر نحافة، وبرز نهداها إلى الأمام أكثر تكوراً، سألتني وهي تبتسم: «علاء، هل ستحبني أكثر لو كنت رومانسية»؟

في الواقع، كنت أتمنى أن تكون شذا رومانسية، وأن تسكب في كل صباح كلماتها في أذني مغموسة بالاشتياق والحب كما ينسكب الندى على عريشة الياسمين في شرفة بيتنا. لم أعلن لها عن رغبتي هذه من قبل، لا أريد أن أشعرها أنني في داخلي عاشق، وأنني لم أخرج من مراهقتي بعد.

في الجامعة، كنت أعشق أنوثة ريتا، وأشعر أنها امرأة قادرة على إيقاظ مشاعر الرجل، لم أفكر بها بوصفها زوجة، وأعتقد أنها لم تفكر بي أكثر من أنّي محطة لتمضية الوقت، كانت تقول لي: «الرجل محطة تسلية».

وعندما أرادت الاقتراب مني بعد أن شربنا النبيذ في مطعم في قلب المدينة، ابتعدت عنها، وقلت: «لا». قالت بعصبية: «أنت فاقد الرجولة».

بعد أن امتلكتُ صفحة على الفيس، وجاءتني رسائل من صديقة اسمها ورد، لا أدري لماذا نشأ لدي إحساس أن ورد هي شادن، إحساسي يقول إنها هي، وعلى الرغم من ذلك كنت أجد في صفحتي على الفيس حالة هروب من قلقي المتزايد والمتصاعد مع تصاعد مساحات الحرب، ويظل حسام يوصيني: «انتبه وأنت تكتب. امسك بمسطرة الرقابة، لا تترك فراغات سياسية بين الكلمة والكلمة، ولا تحمّل على ظهور الحروف جرار الوجع، هذا الفيس ليس آمناً، ألف جهة رقابية تتابع ما يُنشر. هناك عصابات قرصنة تقرصن الصفحات التي يكتب أصحابها عن الوطن».

قلت: «في هذه الآونة أكتب مقاطع عاطفية».

ضحك: «احذر من التوغل في العمق مع صديقاتك، أنت ابن البحر وتعرف كيف تبتلع الدوّارات المائية الإنسان إلى العمق وتغرقه»، ثم انفجر بالضحك: «أنت في الأصل لا تجيد السباحة في المياه الهادئة ولا في المياه غير الهادئة، ابق مع تلك الجولانية، وحدها تستطيع أن تستوعب نزقك العاطفي والسياسي والاقتصادي». تناقشنا أكثر من ساعة حول تلك الأمور، وعندما فتحت الفيس، قرأت رسالة مرسلة من صديقة جديدة اسمها «ورد الشام» كنت

وافقت على طلب صداقتها في الصباح. عادة لا أحب الأسماء المستعارة، لكن اسم ورد الشام لفت انتباهي. كتبت ورد شام:

«ما أشد غموضك وأنت تكتب عن امرأة ما، لديّ أسئلة كثيرة، حول تلك المرأة، هل هي من الماضي أو من الحاضر، أو من خيالك؟ كثيرون يرون أن المرأة القادمة من الخيال هي المرأة الحلم، وآخرون يرون أن امرأة الماضي هي المرأة التي يعيشون عليهاً تحسّراً... الأسئلة عندي أكثر من عديد السنوات التي مرت على لقائنا الأول.

نعم، كان بيننا لقاء أول، ولقاءات أخرى، وثمة لقاء أخير، ألا تتذكر ذاك اللقاء؟!... عندما رأيتك هنا على الفيس، فرحت فرح صياد علق بسنارته خاتم سحري».

راحت رسائل ورد تصلني في كل صباح، في البداية شعرت بالضيق منها، كانت تبدو لي نوعاً من المشاكسة تقوم بها امرأة ما من الحاضر، وقال حسام: «ربما هي امرأة من الماضي، وفي الغالب هي امرأة مشاكسة وسألني: هل تفعلها شذا؟!

قلت: «لا أعتقد، شذا عاقلة».

«هنا لا يوجد امرأة عاقلة أو غير عاقلة، هي الغيرة».

تتسلل رسائل ورد إلى مشاعري، وتتجاهل أسئلتي حول من تكون.

قالت: «كل شيء في وقته جميل».

أوقفت الحوار معها وأخبرتها أنني «لا أريدها أن تكتب شيئاً، وإلا سأضطر إلى حظرها.

إلى الآن، لم أدخل مع شذا في نقاش حول ما تكتبه صديقات الفيس، أجد أن الحذر واجب كما يقول عادل: «علاء، عليك الانتباه وكأنك تسير في حقل ألغام، لا تعرف في أي لحظة تقف على لغم، إن تحركت انفجر وإن لم تتحرك تعيش الخوف من أن ينفجر».

فتحت النافذة الصغيرة. عبر إلى الداخل هواء بارد. لم أكن في مزاج جيد. تبدو دمشق على غير عادتها خالية من زعيق صافرات سيارات الإسعاف والإطفاء. من غرفتنا تبدو دمشق عارية من الفرح، كأشجار الحور التي تنهض على جانبي بردى، سألتني شذا: «بماذا تفكر؟ هل أزعجتك ملاحظتي عن مظهرك؟».

«لا».

بدت شجرة الياسمين ممزقة كثوب لامسه مقص، تهشمت أغصانها بفعل تناثر قطع من القذائف أصابت النافذة والجدار ليلة

ما قبل البارحة، وحاولت شذا الاهتمام بترتيب أغصان الياسمينة لتعود من جديد كما كانت، لكن شجيرة الياسمين ظلت كجريح حرب مهيض الجناح.

«ما رأيك في أن نشرب القهوة في الشرفة؟ منذ زمن لم نشربها هناك».

كنا نتجنب الخروج إلى الشرفة أو شرب القهوة فيها، خوفاً من رصاصة طائشة، أو من تناثر شظايا انفجار قد تصيبنا، أو من سقوط قذيفة كما حدث مع بيت أبي أحمد الجيرودي العامل في التنظيفات بالبلدية، كان مع أولاده وزوجته أمام بيته يتناولون طعام الفطور «شاي وخبز»، سقطت قذيفة عليهم فتحولت أجسادهم إلى أشلاء تناثرت في مساحة واسعة من الحي.

قلت: «لدي بعض الأفكار سأكتبها قبل أن تهرب من رأسي. الكهرباء الآن موجودة، وقد تنقطع في أي لحظة». كنت أرغب في أن أطلع على ما كتبته عشق شام في هذا الصباح على صفحتي، فتحت الصفحة، فلم أجد شيئاً، أعدت التفكير بأفكاري التي تدور في رأسي، منذ بدأت الحرب وكل شيء في الحي مهمل، الشوارع محفّرة، هي ليست شوارع بالمعنى الحقيقي، هي دروب

محفّرة بالقذائف وبحفريات البلدية للصرف الصحي، بعض هذه الحفريات منذ زمن طويل، آخر مرة جاء فيها عمال البلدية وحفروا جورة الصرف الصحي المغلقة قبل ستين، تركوها مفتوحة، كتبت عنها وقلت: إنها قد تخطف في أي لحظة بعض أطفال الحي، أو قد يسقط فيها المارة ليلاً، لا أحد استجاب لما كتبته، هي في رأي رؤساء تحرير الصحف كتابة حادة. أحياناً لا ينشرون ما أكتبه عن أحوال الناس في زمن الحرب، فهم يتوقفون عند همزة القطع والوصل ويجعلون لكل حرف بعداً سياسياً.

فجأة انقطع التيار الكهربائي. هي الحالة المتكررة. تأتي الكهرباء بعضَ الوقت، أحياناً تأتي دقائق، أو تومض لحظةً ثم تغيب ساعات، قال مسؤول الكهرباء على التلفاز مساء البارحة: إن عمال الكهرباء يواصلون الليل بالنهار لوصل التيار الكهربائي.

عندما تنقطع الكهرباء، تبدأ ريم بالعزف، تذكرت مجداً، هو الآخر كان يشارك ريم في العزف، منذ أيام وأنا قلق على مجد، قلبي يقول إنه في محنة، وأنا لا أثق بزهير مكتبي، لم يكن لديّ وسيلة للتواصل معه، وهو لم يتصل معنا أو مع أخيه يوسف، كانت شذا تسألني كيف يكون حال مجد الآن، كنت أطلب إليها

الهدوء «هو بالتأكيد سعيد، وأموره كما يراها بخير، وهو من تركنا، فهل نقتل أنفسنا بالقلق عليه».

سألتني «علاء، لا تبدو في هذا الصباح عادياً، أنا أعرفك».

قلت: «لاشيء، أستمع إلى عزف ريم».

«أبداً، ليس هذا ما يشغلك!! ذهنك منذ أيام في مكان آخر».

قلت بعصبية: «أين سيكون؟!».

«لا أعرف».

«إذن، لا تسألي».

يهدأ صوتها: «علاء، هل ستحبني أكثر لو كنت رومانسية كما هن نساء رواياتك»؟

قلت: «تكررين السؤال اليوم، ماذا في ذهنك؟!»

هذا السؤال في الأصل لم أكن أتوقعه من شذا. أهو سؤال اختبار، أم هو مقدمة لحوار، قلت: متجنباً الانزلاق في أي إجابة: «أحبك كما أنت الآن».

-٨-

ولا مرة خطر لي الاحتفال بعيد ميلادي. في بعض السنوات، عندما كان يحين موعد ميلادي، تزورني شذا في نهاية الدوام بمكان عملي، ونذهب معاً بدعوة منها إلى تناول الطعام في مطعم صغير ورخيص، وبعد الطعام، نتناول بعض الحلوى، ونشرب القهوة، ونتابع إلى البيت.

بعد الحرب، لم تعد شذا تأتي إليّ في مكان عملي، ولم تقم بدعوتي على الغداء، أو بتقديم هدية صغيرة. صار عيد ميلادي يمر بصمت. في كل حال لم يكن هذا الأمر يشغلني أبداً، أعرف أن شذا في زمن الحرب لا تفكر إلا بسلامة الأولاد وبانتهاء الحرب التي طالت ودخلت عامها الخامس .

عصراً، وبعد عودتي من العمل... وجدت على طاولتي قصاصة ورق صغيرة رسم عليها قلبان صغيران متداخلان كما يفعل الشبان الصغار عندما يتبادلون رسائل العشق، كتب عليها: «بالحب تورق الأشجار حتى في الشتاء... وكل عام وأنت بخير»، وعليها زهرة

ياسمين. اعتقدت في البداية أنها مداعبة من ريم، هي عادة تفعل مثل تلك الأشياء الجميلة. والمفرحة. جاءت ووقفت قربي تتأملني وأنا أقرأ الرسالة. نظرت إليها، عندما ابتسمت، تأكدت أن شذا من قامت بهذه المبادرة، سألتها «هو أنت»؟!

اتسعت ابتسامتها، واقتربت، واحتضنتني «كل عام وأنت حبيبي».

وصل إلى سمعنا قرع الباب، فتحت ريم الباب، كانت شذا لا تزال تطوقني، راحت تضحك:

«ما هذه الرومانسية؟ الله... الله»!

ارتبكت شذا: «قولي لأبيك كل عام وأنت بخير، اليوم عيد ميلاده».

اقتربت ريم وقبلتني «كل عام وأنت بخير وأمي بخير ونحن معكما بخير»، وغادرت.

قالت شذا: «ريم صارت صبية».

اتجهت شذا إلى الباب وأغلقته: «الأولاد يلاحظون».

«علاء، ألم تزل تحبني»؟!

«عدنا ثانية إلى هذا السؤال، ما الذي يجعلك تسألين، هل ثمة أمر تخفينه؟!».

«أبداً، مجرد سؤال».

وجدت نفسي أبحث في ألبوم الصور الموجود منذ زمن طويل في درج طاولتي طالما أن الكهرباء مقطوعة، وأنا في وضع نفسي غير مريح، وأقلقني عدم وجود تعليق أو رسالة من عشق.

تأملت صوراً لي منذ أيام المدرسة، ثمة زملاء لم أعد أعرف أين هم الآن، أعرف أن بعضهم استشهد في زمن الحرب، وآخرون سافروا خارج البلد. توقفت عند صورة زميلي عمار، كان يسكن في الشارع المقابل لشارعنا، وكان معي في منافسة على سلمى، كانت تميل إليه أحياناً، وكان يعرف علاقتها معي، لهذا لم تكن علاقتنا قوية، عندما نلتقي نتصافح ونفترق، بعد أن التحقت بالجامعة، التحق بالكلية العسكرية. منذ سنوات رأيته مصادفة في الشارع، أوقف سيارته. وناداني. كان برفقته جنود لحراسته، عرفت أنه في موقع قتالي في مواجهة الإرهابيين، ودعاني إلى منزله إلى دمشق، أخبرته أنني الآن في شغل، ووعدته أن أزوره، وتبادلنا أرقام الهواتف. في اليوم الذي فكّرت فيه بزيارته، سمعت بخبر استشهاده.

شعرت بألم وأنا أتأمل صورته.

سألت شذا «ماذا تتأمل»؟!

أخبرتها بحكاية عمار.

في المساء، رأيت شذا تغمر وجهها بكفيها، لم أسمع صوت بكائها، لكنها بالتأكيد كانت تبكي بصمت...

لم يكن من السهل عليّ أن أجعل شذا تغيّر من حزنها منذ سافر مجد إلى مصر، هي إلى الآن لا تعرف بسفره، تعرف أنه في خصومة معنا ولا يريد المجيء إلى البيت، أحياناً، تقول لي: قلبي يقول إن مجداً الآن خارج الوطن، وأنه في وضع صعب».

فكرت بسؤالها الذي طرحته عليّ مساء البارحة، وفي الصباح أيضاً، إن كنت لا أزال أحبها، وهذا السؤال الذي تكرر في أقل من أربعة وعشرين ساعة بدا غريباً وغامضاً، يقال إن التفسير الذكي للسؤال الغامض والغريب هو ألا تسأل صاحب الموقف عن تفسير لسؤاله.

أعرف أن شذا بعد اشتعال الحرب ذبل فرحها وألق وجهها وحيويتها، كل شيء تحوّل فيها إلى قلق وخوف وأسئلة، وزاد من وجع الحرب.

ثمة خوف يسكنها من أن تسقط قذيفة على بيتنا في أي لحظة. في ليالٍ كثيرة، لم تكن تستطيع أن تغمض عينيها، يظل شعورها كشعور محكوم بالموت ينتظر تنفيذ الحكم به، بات وضعها النفسي ينعكس على البيت، فالجميع متوترون، وكان يوسف على الرغم من هدوئه وصمته يعلن عن غضبه من الواقع: «أشعر أنني في كابوس».

كان ينزح إلى الحارة فقراء جدد من مناطق كثيرة للعيش في بيوت تبدو مجرد أحجار «بلوك» مصفوفة بعضها فوق بعض، وسقوف إسمنتية دون أعمدة بيتونية، ويشترون لها من محل أبي عمران الجردي النوافذ والأبواب والأدوات الكهربائية والمنزلية من أدوات (التعفيش) المسروقة من مناطق القتال. كانت معظم البيوت الفقيرة قابلة للسقوط عند حدوث هزة أرضية، بعض المنازل تشققت وباتت آيلة للسقوط بفعل اهتزازات انفجار الصواريخ والقذائف التي تسقط على الحي ٨٦ بشكل يومي.

كانت شذا قانعة بالسكن في هذا الحي الفقير، وببيتنا الفقير المكوّن من ثلاث غرف وموزع صغير نستخدمه كغرفة جلوس، ونسميه استثناء بهواً. فيه أريكة واحدة وعدة كراس، وطاولة

صغيرة وحولها عدة طاولات خشبية صغيرة فقدت طلاءها وباتت محفّرة كوجه أصابه مرض الجدري، وعلى طرف الجدار الخلفي من الصالون طاولة حديدية عليها جهاز تلفاز أبيض أسود.

يوم سألت شذا، ما رأيك أن نشتري جهاز تلفاز ملوّن من محل أبي عمران الجردي، رخيص وبالتقسيط، وحدنا كما يقول الأولاد مازلنا نستعمل تلفازاً بالأسود والأبيض؟

ردت بغضب «من محل التعفيش؟ لا وربّي لا يدخل الحرام إلى بيتنا».

للمرة العاشرة في هذا الصباح، تخرج شذا إلى الشرفة، لتعيد ترتيب أغصان شجيرة الياسمين، قلت: «ألم ننته من الياسمينة؟! المهم أنها ما زالت بخير، ونحن مازلنا بخير».

«أبداً، لسنا بخير، ثمة أمر سيئ سيحدث لنا. قلبي يقول ذلك».

«أنت تعيشين وسواساً».

انفجر صوتها «أعرف أنك في النهاية، ستعدُّني مجنونة».

ثمة رجال ونساء يعبرون لتفقد أماكن سقوط القذائف.

سمعت صوت أم عساف عند الباب، يخترق صوتها الصالون، وعبرت إلى الشرفة:

«سقطت اثنتا عشرة قذيفة في مناطق متفرقة في حي المزة ٨٦. وسقط قتلى وجرحى بالعشرات»...

وضجّ الحي بأبواق سيارات الإسعاف والإطفاء، وبأضواء الكشافات الضوئية لفرق الدفاع المدني التي جاءت لرفع الأنقاض، وبدا الحي كأنه قطعة من دمار، وارتفع صوت أم عساف بالشتائم:

تفيض شوارع الحي بالأنقاض والنفايات ومياه الصرف الصحي، قال يوسف:

«صار الوضع لا يحتمل».

في كل مرة أناقش فيها يوسف ما يحدث في الحرب، يعلن تأففه من البقاء في البلد، ويعلن رغبته في متابعة دراسته في الخارج... في هذه المرة، قال إنه مصّر على مغادرة الوطن حتى إنْ كان يعرف أنه قد يغرق في البحر، كما غرق كثيرون من الذين أبحروا على قوارب مطاطية.

قلت: هل تريد أن تصيب أمك بجلطة دماغية، مجد سافر، وغابت أخباره عنا، ربما، تأتينا غداً مشاكل ريم، لم تعد الحياة معكم تطاق، قال: «أنت وأمي وراء أزماتنا كلها».

وأغلق الباب وراء بقوة.

يفيض الحي بدخان النراجيل في منتصف كل ليل، على الرغم من قسوة الأحداث، وتبدو الجرذان تحت الأضواء الهاربة من مصابيح الكهرباء كالشياطين، وتتصاعد رائحة المتة حادة كرائحة العشب المتعفن، وترتفع مواويل العتابا.

ثمة مساحات من الحي لم يصلها البناء قبل الحرب، تبدو غابة من الأعشاب وأشجار التين والصبار الشوكي. منذ بدأت الحرب، بدأت تلك المساحات تضيق تدريجياً، ارتفعت مبان وأبراج سكنية لرجال من الحي، وثمة رجال غرباء عن الحي أقاموا أبراجاً ومحلات تجارية، وازدحمت ببضائع مهربة من تركيا وغيرها.

عصر اليوم، الأول من آذار، في الطريق إلى البيت قادماً من بيت عادل، رأيت أم عساف تشتم الحرب وتسميها «الحرب السافلة». قلت: «أعجبني وصفك للحرب. من أين تأتين بتلك العبارات الكبيرة وكأنك من شعراء الحداثة الذين يمسكون بالكلمات، ويديرونها على وجوهها، للوصول إلى الوجه الأكثر غرابة».

«هل وحدك من يقول العبارات الجميلة؟.

يا أستاذ، لو بقيت أنا في الحزب، لكنت اليوم في وضع سياسي مميز، ربما، قائدة في المعارضة التي تتنقل من فندق خمس نجوم إلى فندق خمسة نجوم، لا، لا، أنا أرفض المعارضة المسلحة، هذه المعارضات المسلحة تدير لعبة قتل الناس والأفكار والأوطان».

وتمرر كفها على جبينها، وكأنها تمسح الغبار عنه:

«علاء، لماذا لا تظهر على التلفاز وتتحدث عن الحرب، وعن وجع الناس والغلاء والفقر والجوع، وعن الذين يذبحون الوطن من دواعش الخارج والداخل. أنت كاتب، جارنا عدنان «أبو مرعي، أنت تعرفه، لم يكن أحد يعرفه قبل الحرب، ولم يكن يعرف أن يقول جملة مفيدة، صار اليوم محللاً سياسياً، يطلّ بربطات عنق حمراء وأحياناً بربطات عنق خضراء تمتزج بلون أصفر، وبمثبّت شَعْر لمّاع على شَعر مصبوغ، عندما يتحدث، يقسم بالله على ما يقوله، قلت له: «يا أبا مرعي، صرت محللاّ سياسياً آمنا بالله، ولكن لماذا تقسم بالله؟!، ألست على ثقة بما تقوله؟».

واتسعت ضحكتها «الذين يتحدثون عن الحرب من محطة إلى محطة، يرددون الكلمات نفسها، أسطوانات مشروخة، من

أين يأتون بتلك العبارات الفضفاضة، تعبنا منهم، ومن تلك القوالب الجامدة. ماذا عن زوجتك شذا؟!، الرجال يموتون، وهي تبكي على ياسمينة»!!

«تعالي إليها وحدثيها».

«لا، لا أستطيع التفاهم معها، عقلها من صخر».

عندما عدت إلى البيت، وجدت شذا في الشرفة تتأمل الياسمينة، قلت: «شذا، علينا ألا نعطي الأمر أكثر من حجمه، كل شيء بات عادياً حتى الموت، سنوات ونحن على هذه الحال، ما باستطاعتنا أن نفعل، ستعود الحياة إلى ما كانت عليه، والياسمينة ستعود من جديد وتتفتح من جديد، وستحصلين على عطر أزهارها».

«أخاف من القادم».

عادت إلى غرفة نومنا، وتمددت على السرير، وغمرت وجهها بالوسادة. لا أدري إن كانت تبكي، وهي تعتصر رأسها بالوسادة.

البارحة، قالت إنها باتت تتعرض في نومها لكوابيس حادة، وأن ما حدث اليوم في رأيها هو تفسير لهذا الكابوس اللعين».

بدأت بكتابة حوارية روائية بين «سلمى وبطل الرواية».

وكانت شذا تتابع كتابة الحوار...

هي عادة لا تعلّق على مثل تلك الكتابات التي تختزن حوارات عاطفية بين أبطالها وبطلاتها.

أعرف أنها لا تحب بعض الأسماء التي تمر في رواياتي، تعدّها أسماء من الماضي، لم تغادرني وتعيش في عقلي الباطني، لم تقل ذلك صراحة، فأنا أشعر بامتعاضها من هذه الأسماء عندما أكتب أحدها في رواية أو في منشور على الفيس، وتتضايق من اسم «سلمى» بالذات. لشذا عذرها هي تعرف علاقتي بسلمى قبل زواجنا.

كنت في أشد الاشتياق إلى كأس من الشاي، لم أكن أحب الشاي قبل الحرب كما أحب شربها في زمن الحرب، وبعد أن بدأت علاقتي بالفيس. تنصحني شذا باستبدال الشاي بالبابونج أو بإكليل الجبل. «هذا أكثر فائدة صحية لك».

ذهبت إلى المطبخ، وملأت الإبريق بالماء، وأشعلت الغاز، البارحة أحضر لنا عسّاف أنبوبة غاز من جرمانا. قال «بعد بحث طويل، وجدت لكم واحدة، ودفعت ألفي ليرة زيادة على سعرها، هذه هي الحال، أخبرته بأنني أشكره، وإن استطاع الحصول على

أسطوانة أخرى أن يأتي بها، ليس من السهل عليّ الوقوف في رتل طويل ساعات أمام محل بائع الغاز، وقد يأتي دوري وقد لا يأتي إلا في يوم آخر».

قال عساف «يقولون إن الغاز سيوزع على بطاقة ذكية، وهذا أفضل».

جاءني صوت شذا: «ماذا تفعل في المطبخ»؟

قلت: «أعدّ الشاي».

«ومنذ متى تعد الشاي، أو تدخل المطبخ؟ تعال، أنا سأعدّها لك».

كان عليّ أن أرد على الهاتف، كان عادل يتحدث، وكعادته، أطال الحديث، قلت له: «كان يجب أن تكون كاتباً روائياً. «ضحك»: كان ينقصني التمكّن من اللغة ووجود الوقت للكتابة، ودعم من زوجتي التي تكره كل ماله علاقة بالأدب، وأخيراً أحتاج إلى دار توافق على النشر.

قلت: «وبحاجة إلى من يقرأ، أعدك عندما تنشر روايتك، سأعاقب نفسي بقراءتها... ما الجديد اليوم من أخبار في البلد؟».

كل يوم أخبار جديدة، يقولون إن الدولار يرتفع بالساعة، إن كان معك نقود، قم بتحويلها إلى دولار.

قلت: بصعوبة نعيش يومنا. منذ ثماني سنوات لم أستطع توفير ليرة واحدة من شهر إلى شهر. قال تعال إلى المقهى القريب من بيت حسام، ومن هناك نتصل معه ليشرب الشاي معنا.

«لا، أنا أعد الشاي، وعليَّ أن أعيد وصل جهاز الحاسوب بمأخذ كهربائي آخر. البارحة حرقت الصاعقة المأخذ القديم، وحمدت الله أنها لم تحرق جهاز الحاسوب ...نلتقي غداً».

رحت أرتب المأخذ والأشرطة الكهربائية، انحرف المفك وأصاب كفي، ونزف دماً، جاءت شذا غاضبة: «إذا كنت لا تعرف تركيب البرغي، فلماذا تفعل؟».

جاءت بمحلول كحولي وقطن ومسحت الجرح، ثم وضعت عليه لصاقه طبية. «تفضّل الشاي».

لم أتبين مكاناً على الطاولة لوضع كأس الشاي. ثمة صحف تملأ الطاولة، وأوراق وأقلام تتناثر في كل مكان، وكأس شاي فارغ من ليلة البارحة. جمعتْ شذا الصحف والأوراق ووضعتها في كيس نايلون:

«علاء، خذها معك في الصباح وألقها في حاوية القمامة، أفكر بإعطائها لجارنا «أبي عدي»، بائع الفلافل والحمص، دعه يستفد منها، لو عرف الذين يكتبون في هذه الصحف أن ما يكتبونه يذهب إلى باعة الفلافل لشتموا الثقافة».

قلت: «لم أتوقع أن يكون تفكيرك هكذا. أنت جامعية وخريجة كلية الإعلام، ماذا نقول عن الناس العاديين»؟!

أخبرتني أنها قبل أيام أعطته كيساً ملوءاً بالصحف وشكرها، وقال لها: «يا ست شذا أنت توفرين عليّ، خذي بعض الفول والحمص. رفضت، وقلت له عيب يا رجل، أنا أهبك هذه الصحف ولا أبيعك إياها، وأضحكني عندما سألني «كيف يقرأ الأستاذ علاء كل هذه الصحف والمجلات؟ هل لديه الوقت لذلك؟ وهل ثمة فائدة من قراءتها؟»، ثم لوى رقبته وراح يحك رأسه باستغراب وسخرية «الله في خلقه شؤون». وتأملني «أختي، أم يوسف سأسألك، عدم المؤاخذة سؤالاً، في الحارة يقولون الأستاذ علاء فهيم ومثقف، وأرى صوره في الصحف، أقول لزبائني مفاخراً، هذا جارنا، والباب على الباب، لماذا لم يصبح علاء مسؤولاً، ويركب سيارة سوداء، هل هم أفضل منه؟ عدم المؤاخذة، يا أستاذة، والله سؤالي سؤال المحب».

مرّ الزمن سريعاً، وظلت عجلة الحرب تدهس أرواح الناس، وظلت شذا في قلق مما يجري، وفي خوف على عريشة الياسمين، وارتفع لديها منسوب القلق والحزن بعد غياب مجد، فهي إلى الآن لا تعرف أنه غادر الوطن. كل ما في الأمر أنه لا يريد المجيء إلى البيت.

اليوم الإثنين، الأول من شهر كانون الثاني، ليلة رأس السنة مرت البارحة قاسية على دمشق. انقطع التيار الكهربائي عن المدينة، وتساقطت قذائف الهاون، وصواريخ السكود، أصابت منازل، وبشراً، وفي الحي ٨٦ قتلت ثلاثة أطفال وأرملة شهيد.

اتصل حسام منذ أول الصباح، وقال لي «كل عام وأنت بخير، علاء أنت أول من اتصل معه لأقول له كل عام وأنت بخير ...أين سهرت؟

قلت: «كالعادة... في بيتنا».

«بالتأكيد، نمت قبل أن تعلن السنة الجديدة عن قدومها».

«هو ما حصل، وقبل أن تصير العاشرة ليلاً...

البارحة، تمنت عليّ شذا أن نسهر إلى أن تعلن الساعة بدء العام الجديد طالما أن الأولاد معنا. لا أحد يعلم إن كنا قد نسهر

كلنا مرة أخرى في عام آخر، وحاولت أن أظل مستيقظاً، انقطاع الكهرباء، وانفجارات القذائف، وبرد الليل جعلني أتجه إلى غرفة نومي قبل العاشرة مساء، لهذا لا أعرف كيف كانت لحظة الانتقال من عام إلى عام، أخبرتني ريم أن الرصاص وأصوات المفرقعات ضجت بها أجواء العاصمة قبل بدء العام الجديد وبعده، ويقولون حرب، وفقر؟!... حسام... وأنت أين سهرت؟!

أخبرني أنه سهر في مبنى (التلفزيون)، وتابع مع المراسلين أفراح النوادي الليلة في المدينة، قال: «يا رجل، ثمة عالم آخر، من يرى الوجه الآخر لدمشق يقول إنها ليست في حرب... كل شيء يدفعني إلى الجنون»!

«حسام، لا تكن حساساً، قد تتفجر يوماً بقذيفة هاون وأنت في طريقك إلى (التلفزيون)».

«أنا لا أخاف من الموت، هم يهددونني، انتبه إلى نفسك، هم يهددون كل من يكتب عن الوطن، البارحة فجروا الإخبارية، وقتلوا قبل ذلك مراسلة للإخبارية، لا أخاف من هؤلاء الإرهابيين، أخاف على الوطن من هؤلاء الذين يعتصرون الوطن كبرتقالة، في كل يوم يزداد عددهم، ألا يخاف هؤلاء من الموت والإرهاب؟

طلب مني مدير المحطة أن أجري لقاء مع القائد الميداني «أبي صفوان» لم أكن أعرف أنه جارك «أبو صفوان» سبحان الله، صار بين يوم وليلة فوق الريح، أبو صفوان اليوم أهم من أي مفكر أو كاتب في البلد، قلت لمدير المحطة: أعتذر. أنا مريض، أنا حسام مقدم أهم برنامج ثقافي، يطلبون مني إجراء لقاء مع واحد كأبي صفوان لا أحد يعرف كيف صار بهذه الأهمية، يقولون إنه صاحب متجر ومحطات وقود ولديه أسطول من سيارات النقل ومكاتب صرافة... وعندما رفضت، جاؤوا بمذيع من المحطة وأجرى اللقاء. بدا أبو صفوان في اللقاء بطلاً.

جاء المساء بارداً، لم أشعل المدفأة منذ أول الشتاء لعدم توافر الوقود، لهذا لجأت إلى سريري، وجاءت شذا وقالت: «هذه الحياة لا تطاق»، واقتربت مني وطوقتني، كان جسدها يرتجف...

مرّ الليل ولم أنم، كنت قلقاً، فأنا لا أعرف أخبار مجد في القاهرة، هل تركه زهير مكتبي، هل يتابع دراسته أو أنه ألقي في الشارع، ويوسف في كل ليلة عليه أن يذهب إلى نهاية دمشق من جهة الشرق للعمل في محطة وقود دون أجر، وعليه أن يستفيد من إكراميات سائقي السيارات، لم أتخيل يوماً أن تكون أسرتي على

هذه الشاكلة، وأن يكون المستقبل هكذا، البلد كلها... لم أكن أتصور أنه سيكون هكذا.

«تعال وتناول فطورك».

عرفت أن الصباح طلع، وبدا ضوء الشمس ينسرب من النافذة قوياً، لم تكن لدي رغبة في الأكل، وعلى الرغم من ذلك ذهبت إلى المطبخ، لم أكن أريد أن تسألني شذا لماذا لا أريد تناول طعامي، هل تشعر بشيء؟ هل أنت على ما يرام؟ إذا كنت تشعر بشيء، دعنا نذهب إلى الطبيب، منذ زمن لم تراجع الطبيب ولم تقم بإجراء التحليلات الطبية لمعرفة مستوى الكولسترول والشحوم والسكر والخضاب، وأسئلة كثيرة أخرى ستتبعها، قلت وأنا أتناول طعامي: يخطر لي الخروج من البيت، أشعر أنني سأنفجر، ودون أي سبب، هو الضجر، وواقع الحال.

كانت ترفع كأس الشاي إلى فمها، لم تشرب شيئاً، وتركت الكأس على الطاولة، وتأملتني، قلت: «ما بك؟!»، قالت «قل إنك تريد الهروب، هل ثمة موعد مع أحد».

«يعني»؟!

«لا أقصد شيئاً، لا أقصد شيئاً».

«هل تذهبين معي»؟

«إلى أين»؟

«ليس في رأسي مكان محدد، نذهب إلى السينما، أو إلى المقهى، منذ زمن لم ندخل مقهى، نحن في عام جديد، وأريد أن نبدأ بداية جديدة».

«ألا تسمع أصوات القذائف».

«هي لم تتوقف طوال الليل، وستظل».

نهضت من وراء الطاولة، وكأس الشاي في يدي، ونظرت من النافذة، بدا الجو في الخارج بارداً، وثمة بياض ثلجي يلوّن جبال القلمون الغربية وأطراف دمشق من جهة لبنان، لم يكن لدينا مازوت لإشعال مدفأة، وليس ثمة كهرباء منذ ليلة البارحة، قالت أخبار المساء في التلفاز: إن الجهات الإرهابية قامت بقصف محطة الكهرباء مما أدى إلى قطع التيار الكهربائي عن بعض من دمشق والمنطقة الجنوبية.

غادرت المنزل، وشذا في غرفتها، لم تسألني إلى أين، ولم تقل شيئاً، أعرف أنها ستترك أسئلتها إلى ما بعد عودتي، درت في الحي

٨٦، ووصلت إلى أطراف الشيخ سعد، ترددت في الذهاب إلى منزل حسام، هو بالتأكيد لا يزال نائماً، ربما لم ينم ليلة البارحة، شعرت بالبرد يمشي في مفاصلي، مررت على مكتبة مجاورة، اشتريت صحيفة الأخبار اللبنانية وصحيفة الحياة التي تنشر في هذا اليوم مقال أدونيس، منذ زمن لم أقرأ الحياة، كنت أتابع مقالات أنسي الحاج وأدونيس من خلال النت.

سألتني فتاة تشتري صحيفة الأخبار «ألست الأستاذ علاء يوسف غانم»؟!

كانت فتاة على مشارف الأربعين، ولم تكن تلبس خاتم زواج، بدت فتاة عادية، وفي وجهها طيبة، لهذا لم أنزعج من سؤالها. أجبتها «نعم». صافحتني بحرارة، وقالت: «كلنا في البيت نقرؤك، وإني أدعوك على فنجان قهوة في بيتنا، اعتذرت، سألتني أستاذ إلى متى ستستمر الحرب، أليس من نهاية لهذه الفاجعة؟ كان السؤال كبيراً، قال صاحب المكتبة: «لن تنتهي هذه الحرب أبداً ما دامت دمشق تتمسك بعروبتها، أليس كذلك يا أستاذ»؟ قلت: لا أعرف كيف بدأت ولا كيف ستنتهي، أعرف أنها تعضنا بأنيابها الموجعة».

وغادرت المكتبة. لحقت بي الفتاة: «ألا تريد الذهاب معي؟».

أخبرتها أنني لا أستطيع وأن زوجتي وأولادي بانتظاري. «ظلت مصرة عليّ للذهاب معها، ورافقتني إلى مدخل الحي ٨٦، وتريد أن تتابع إلى بيتي. قالت: «أريد أن أعرف مكان سكنك لأزورك، شرف لي أنني تعرفت إليك، أريد رقم جوالك». اعتذرت: «أنا لا أحمل جوالاً». قالت: «أنت تريد الهروب مني».

في البيت لم أدخل إلى غرفة نومنا، لكن شذا سألتني «لماذا رجعت فوراً»؟! قلت: «اشتريت صحيفتين من المكتبة وعدت فحسب، فكرت، بزيارة حسام لكنني لم أذهب».

أحضرت لي ريم فنجان قهوة، هي المرة الأولى التي تحضّر ريم القهوة، لم أسألها لماذا قامت بذلك، ولم تعدّها أمها كعادتها: «يا فراشتي الجميلة».

قالت ريم: «ليتك أسميتني فراشة، أو أي اسم غير ريم، لا أحب هذا الاسم».

قلت: «هو اختيار أمك. كنت سأسميك شادن، ولكن أمك رفضت».

«لماذا»؟

«كان في ظنها أنني أردت تسميتك على اسم زميلة لنا في الجامعة، وتظن أنني كنت أحبها».

«وهل كنت تحبها فعلاً»؟

قلت: «يكفيني تحقيقات أمك».

«اعترف». «واحتضنت رأسي». بابا اعترف، هل كان هناك غير أمي»؟!

عاد التيار الكهربائي، وقلت: «توقفي عن طرح الأسئلة، وحملت فنجاني إلى طاولتي، وفتحت على صفحتي في الفيس، رحت أرشف من فنجان قهوتي رشفة رشفة، وأتابع ما كتبت «عشق شام» على الماسنجر، منذ البارحة لم يتسنَّ لي قراءة ما كتبت لي بسبب انقطاع الكهرباء، قالت: «إنها تكتب في كل مرة جزءاً من حكايتها، ربما تصلح ذات يوم أن تكون رواية، أليست الرواية حكاية يقوم الكاتب بإعادة تشكيلها فنياً»؟

كانت حكاياتها تبدو كقصص متخيّلة، جميلة وجذابة. في فصلها الأول قالت إنها تكتب عن طفولتها ومدرستها وأسرتها الفقيرة الطيبة، وعن الحب الأول في حياته، وإنها أحبت أوّلُ مرة، وهي في

الثالثة عشرة من عمرها، ولم تكن تعرف كيف يمكنها أن تتحدث إلى من تحبه الذي قضى بحادث سير.

وأنهت الفصل الأول، وتابعت الكتابة: «علاء، - يوم رأيتك، ولن أقول لك أين، ربما على البحر، أو في السوق أو في مكتبة أو في الجامعة، أو في مكتبك في وزارة الاقتصاد، عليك أن تكتشف وحدك أين التقينا، بصراحة... يومذاك تفتح قلبي لك، التقينا مرات لقاءات عادية، هل تذكر يوم شربنا القهوة معاً أول مرة، وأين؟ بالتأكيد، لا تتذكر، لأنك شربت القهوة مع كثيرات، كنت تنظر إليّ بارتباك. وأنا شعرت بالارتباك والخوف هذا الخوف عشته قلقاً من أن أفقدك يوماً، وهو ما حصل، كم أفكر بأنني سأموت في مكان أنت فيه، أو أن تموت أنت في مكان يجمعنا. كيف؟ لا أدري. أظنه كابوس الموت الذي ولد فينا في زمن الحرب، مرّ زمن طويل على لقائنا الأول، الحرب اليوم تزرعنا بالكوابيس. علاء، ماذا تقول لك الحرب؟ أقرأ رأيك في الحرب في الصحف وهنا على صفحتك، لكن لم تكتب ما الذي تقوله الحرب لك كمثقف وأب ومواطن وكاتب. هذا سؤال مهم في رأيي، أنتم الكتاب تهربون من الأسئلة المهمة... السياسي والكاتب

يهربان من الأسئلة. هذه سمة عامة، البارحة قتل الدواعش ابن خالتي ذبحاً... هل في ثقافتنا الذبح، أو أن تلك الثقافة حالة وافدة؟ في رأيي لم تأتنا ثقافة الذبح فجأة. بالتأكيد كان لها دعاة يعملون على تمريرها إلى عقول الناس، والمسؤول السياسي والثقافي نائمان في لذائذ الحياة، لا أريد أن أقول كلاماً ماجناً».

كتبت لها: «تذكرينني برواية نجيب محفوظ ثرثرة فوق النيل».

«لماذا لا تقول برواية حيدر حيدر وليمة لأعشاب البحر».

«لم أقرأها، سمعت عنها، وسمعت أن جهات ثقافية عربية منعت تداولها».

«سأوفرها لك إن التقينا، نحن سنلتقي، أريد رؤيتك ولو لدقائق، لا تخف من تلك الجولانية، لا تجعلها تقتل حريتك، أنت كاتب، وبحاجة إلى الانفلات، هل أعجبك تعبير الانفلات»؟!

في رسائل عشق، يمتزج عشق دمشق بذاكرة قديمة، وبالفلسفة والحب والوجع والقلق والأسئلة. تكتب وكأنها تتحدث إليّ في مقهى دون حرج، وهو الأمر الذي أحببته فيها، والأمر الذي جعلني أحتار كثيراً في معرفتها، تمرر حكاية من حكاياتنا دون أن تترك قرينة ولو

بسيطة تدلّ على شخصيتها الحقيقية؛ لهذا أظل غارقاً في تخميناتي من تكون. المعلومات الشخصية عنها في صفحتها تعلن أنها دمشقية الهوى، لا تحدد مكان الولادة ولا الكلية التي تخرجت فيها ولا وضعها الاجتماعي وليس ثمة صورة شخصية على صفحتها، بين الحين والحين تغيّر اسمها، كانت اسمها وردة، اليوم تأتيني باسم عشق.

في الواقع، أخشى أن تكون هذه الرسائل وأمر اللقاء الذي تطالبني به «عشق» من إخراج شذا، وعلى الرغم من ثقتي أنها لا يمكن أن تمارس مثل هذه اللعبة الخطيرة، بقيت أشك فيها لأمر لم أستطع تفسيره، على الرغم من متابعتي الدقيقة والمستمرة لتصرفاتها وسلوكها في هذه الفترة التي تصلني في رسائل «عشق شام» أي قرينة تربط بين شذا وعشق شام. أعترف أن ما تكتبه عشق عن أشياء من الذاكرة البعيدة والقريبة تسكنني... في الآونة الأخيرة، راح تفكيري إلى أم عسّاف، فهي تعرف أشياء كثيرة عن حياتنا الخاصة، لأنها دائمة المجيء إلينا في البيت، أنا وشذا نتحدث أمامها وكأنها من أفراد البيت، وأم عسّاف وإن بدت امرأة عادية، لكنها ليست عادية أبداً، تمتلك الثقافة والوعي والفهم والذكاء، وهو ما جعلني أفكر أنها «عشق شام»، وأنها تفعل ذلك من باب المشاكسة أو المزاح،

رحت أدقق في ذلك من خلال أقوالها وأحاديثها، لم ألحظ ما يؤكد شكوكي هذه... ثمة أشياء من الماضي كانت تكتبها «عشق» لا تعرفها أم عسّاف ولا تعرفها سوى شذا، وربما زميلات شذا...

ربما تتحدث شذا أمام زميلاتها عن حياتنا الخاصة وأن إحداهن، راحت تسرّب ذلك إلى غيرها، وربما كانت «عشق» إحدى زميلات شذا.

لم أشأ أن أخبر شذا بما أظنه حول رسائل «عشق»...

للمرة الثالثة خلال أقل من شهر قمت بشطب صداقتي مع «عشق»...

لا أريد أن تتعمق علاقتنا على الفيس وتتحول إلى علاقة عاطفية كما قلت لصديقي حسام.

كان لحسام رأي آخر: «نحن بحاجة إلى جرعات من العاطفة لا نحصل عليها من الزوجة، أو في الحياة العادية من صديقة. الناس هنا محكومون بالتقاليد، الصداقات على الفيس خارج التقاليد وخارج الأطر التقليدية. هذا الفيس بات نافذة للمشاعر المسجونة. استمر في اللعبة، أنت كاتب، وتحتاج إلى إيقاظ مشاعرك، ومعها تستيقظ كلماتك الهامسة. الحرب قتلت كلماتنا الهامسة، بتنا قساة كحد ساطور

يحمله داعشي للذبح، هم يذبحون البشر والمشاعر والكلمات، نحن اليوم أمام أبجدية مذبوحة».

كانت «عشق» تأتي إليّ في كل مرة ألغي فيها صداقتها باسم آخر.

منذ أيام جاءت باسم «وردة الغاردينيا».

لم تقل إنها صديقتي التي كانت تتواصل معي من قبل باسم «صدى الصمت» وقبلها باسم «ورق أيلول الأصفر»، بت أعرفها من أسلوبها في الكتابة، ومن إصرارها على الحوار وعلى اللقاء ومن عبارات مكرورة.

تسألني: «ما المشكلة إذا التقينا، وحكينا؟...».

في داخلك خوف لم تخرج منه، وأظنك لن تخرج منه حتى لو التقينا، أنا أعرفك، سيطر عليك الخجل. على فكرة، أحب خجلك وارتباكك.

يظل إحساسي يقول: إن من تقول ذلك، بأي اسم جاءت هي «عشق شام». لأنها وحدها من يمزج بين حكايات الحياة والحب والحرب والوطن. وعندما أسألها: «هل أنت عشق شام»؟

في البداية، تنكر، وتتساءل بمكر «من عشق؟ وماذا تعني لك؟ هل يهمك أمرها»؟ وبعد حوار، تعترف أنها «عشق» بلحمها ودمها وأحاسيسها وأنها ستظل تراسلني ما دامت ذاكرتها تحمل عبقي.

أحرص على أن تقرأ شذا ما تكتبه «عشق» بأي اسم جاءت إلى صفحتي، وأرقب ردة فعلها، تظلّ شذا عادية وهي تقرأ الرسائل، تبتسم ابتسامة هادئة، أحياناً، تميل برأسها على كتفي، وتقول من باب الاستخفاف بتلك الرسائل: «لله في خلقه شؤون، ما الذي تريده منك تلك المجنونة؟ هي بالتأكيد تريد أن تعبث بمشاعرك».

«والحل»؟!

«دعها تكتب إلى أن تتعب وتملّ».

لا أعلق على موقف شذا، ولا أحاول أن أسألها رأيها في الأسماء التي تتواصل فيها «عشق» ولا في كتاباتها، أميل إلى الاعتقاد أن ما يجري ليس سوى مسرحية من كتابة وسيناريو وإخراج شذا أو من إحدى زميلاتها وعليّ التظاهر بتجاهلها، لم يخطر في بالي ولا مرة أن «عشق» قد تكون إحدى من كنت أعرفهن في الجامعة مثل شادن أو نرجس أو ريتا أو ابنة خالي بتول. استبعدت أن تكون ابنة خالي بتول الخجولة صاحبة المشاعر الحساسة والعبارات

الناعمة والرقيقة، أعرف أنها تزوجت من زهير المكتبي على الرغم من رفضها له، تم زواجها كصفقة تجارية بين خالي نسيم ووالد زهير، واستبعدت أن تكون ماجدة، صحيح أنها تحب المزاح... لكن ليس هي بالتأكيد، في لغة ماجدة مزاح وخفة دم لا أقرؤه في رسائل عشق شام التي تتسم بالجدية والغرابة، واستبعدت أن تكون شادن، أعرفها رصينة جداً ولا يمكن أن تمارس هذا النوع من المشاغبة معي على الماسنجر.

أخبرتني ماجدة: إن شادن صديقتها على الفيس.

عندما فتحت على صفحة شادن، بدت صفحة عادية، ثمة صور لدمشق القديمة والجديدة ومنشورات سريعة تشتم الحرب في منشورين أو أكثر، وتتحدث عن الجامعة في الماضي لتعلن من خلال المنشورين عن تلك اللحمة الاجتماعية التي كان يعيشها طلاب جامعة دمشق التي تعطي صورة عن واقع المجتمع السوري. لا شيء في صفحتها عن الحب، وهو ما جعلني أستبعد أن تكون شادن هي عشق شام، ولا سيما بعد أن أخبرتني ماجدة أن شادن هي اليوم زوجة لرجل أردني مهم، وأنها تعيش حياة الأميرات، وعندما سألتها أما زالت تتذكر الجامعة؟

قالت إن شادن ذكرت كل الزملاء ولم تأتِ على ذكرك.

تنفتح ذاكرتي:

كانت دمشق بحيرة من الزحام، ثمة سيارات تعبر، ورجال ونساء يملؤون الأرصفة، وثمة من منهم يقطع الشوارع من جهة إلى جهة أخرى غير مبالين بالسيارات، وثمة باعة أرصفة... وجنود يعبرون... وواجهات ضوئية... وشباب يقفون على الأرصفة لتأمل العابرات.

قلت: «شادن، ما رأيك أن نذهب إلى قاسيون ونطلّ على دمشق من عل»؟

«لا، أبي يذهب إلى هناك دائماً».

دخلنا مقهى مضاء بثريات ملوّنة متدلية من سقوف مزينة بديكورات أنيقة، رحّب بنا في الباب عامل الاستقبال، ومشى معنا إلى طاولة صغيرة لا يجلس حولها أحد.

ثمة شبان وفتيات يجلسون حول الطاولات، ثيابهم أنيقة، وضحكاتهم عالية، ينفث جهاز التكييف هواء لطيفاً.

جاء النادل... كان لباسه أنيقاً... ونظيفاً، وعلى الجانب الأيسر من قميصه الأبيض المكوي لوحة صغيرة وأنيقة، كتب عليها اسم

المقهى «وهج العشاق». وضع أمام كل منا قائمة مغلّفة بغلاف جلدي أنيق... وانتظر، رحنا نقرأ أنواع المشروبات بأسماء أجنبية.

كانت داليدا على شاشة تلفاز كبيرة تغني.

نهضت شادن، وأمسكت بيدي، «تعال».

«إلى أين»؟!

«هذه الأماكن لا تشبهنا».

اتجهنا إلى حديقة ساحة عرنوس، ثمة رجال ونساء كبار في السن يتوزعون على المقاعد، جلسنا على مقعد خشبي، لم تكن شادن كعادتها مرحة... أو ممازحة، ظلت صامتة... أمسكت بكتاب تحمله، وبدأت تقلب صفحاته كأنها تحاول الهروب من حالة ما... أمسكت بالكتاب، ووضعته جانباً، وقلت: «هل هذا وقت القراءة»؟

«علاء، أشعر أننا نحن الفقراء نؤدّي على مسرح الواقع دور الخراف، والأغنياء يؤدون دور الضباع. ما الذي يفرح الفقراء في حياتهم؟ نحاول الهروب من واقعنا بصنع الأحلام، في الماضي كانوا يصنعون أحلامهم من التمر، وأخيراً يأكلونها، نحن نصنع

أحلامنا من السراب، ستظل صورة المقهى في ذاكرتي، هل نصبح أغنياء ذات يوم»؟!

«أهذا ما يحزنك»؟!

«ربما أجبر على الزواج من قريب لنا في الأردن».

تركت رأسها على كتفي وراحت تبكي.

«أنصحك أن تبتعد عني، طريقنا مسدودة».

جاءت أم عساف، كان صوتها يسبقها... سألتها إن كان لها صفحة على الفيس.

أجابت بطريقتها الساخرة والمرحة: «لماذا؟!... لتغازلني؟... لا، ليس لي صفحة على الفيس ولا على غيره... همي أن أشبع ولديّ خبزاً، وأن يحميهما الله، وأهم أمنياتي أن يتزوج عساف وينجب لي حفيداً وأسميه على اسم جدّه».

ونادت على شذا «ألا تريدان أن تسقياني قهوة»؟!

راحت تضحك، «باتت أسعار القهوة مرتفعة، خطر في بالي أن أحضر من قريتنا بعض ثمار البلوط والسنديان لتحميصها وطحنها وإعدادها كقهوة، يقولون إنها ألذ».

في أول المساء، سقطت قذائف على عدة أماكن في الحي، واستشهد خمسة عشر رجلاً وامرأتان وستة أطفال، وثمة جرحى كثيرون لا أعرف عددهم، وأصابت شظايا قنبلة جدار بيتنا من جهة الياسمينة للمرة السابعة. سمعت صوت ارتطام شظية القنبلة بالجدار قوياً، واهتز البيت كله، ولوت الياسمينة رؤوس أغصانها وكأنها على أعواد مشنقة، وتناثرت وريقاتها وأغصانها، لكن الجدار لم يتهدّم، وجاءت ريم باكية، وراح يوسف وريم يشتمان الحرب.

واجهت موقفاً صعباً في إعادة شذا إلى هدوئها، في ظنها أن القذيفة القادمة، أو ثمة قذيفة يهيئوها القدر لتسقط على رؤوسنا، تمنت عليّ أن نغادر الحي إلى مكان آخر أكثر أمناً قالت: «أشعر أن حينا من أكثر الأماكن خطراً»!.

قلت: «كل الأماكن خطرة، هي الحرب في كل مكان، أختي يمامة أخبرتني أن القذائف تسقط على المدينة وحولها من وقت إلى آخر، وهذه القذائف تزايد عددها بعد وصول الطائرات الروسية إلى مطار حميميم».

كتبت على صفحتي: «التهمت الحرب الوطن كحريق في سجادة، في وسطها ومن كل أطرافها».

علّقت عشق شام التي جاءتني باسم جديد «نخلة البادية: عندها يحترق الوطن».

منذ الصباح خرجت شذا تتفقد الياسمينة. ربطت أغصانها المتدلية بخيوط من الصوف، وهي تبكي، قلت: «في كل يوم سنقيم مناحة»؟!

ابتلعت غصة بكائها وظلت تربط أغصان الياسمينة بالخيوط الصوفية، هربت إلى صفحتي، قرأت سؤال «نخلة البادية» «من أين جاءت تسمية الحارة باسم ٨٦»؟

أخبرتني أن أمانة العاصمة عمدت إلى بقاء الحارة رقماً لأنها إذا ما فكرت بإزالتها ذات يوم تكون قد أزالت رقماً... وتكون أخبار الإزالة في الإعلام بسيطة، وهكذا تصبح تلك المباني الفقيرة المتلاصقة كطيور البطريق على شاطئ مجرد أرقام مسحتها ممحاة الحكومة بقرار تنظيمي لإعادة بناء الحي. ثمة إشاعات تقول: «إن شركة خليجية ستعيد بناء الحي، وتحوّله إلى حي حديث، وتدفع

ثمن المنازل الموجودة، المؤسف... يقولون: إن تشريعات ستصدر لتحويل كل الأحياء التي نشأت في السنوات الثلاثين الأخيرة إلى مشروعات بناء، ستتسلمها شركات إعمار خليجية وغير خليجية».

في الواقع...

كثيرون في الحي يعتقدون أن هذا الحي مهما طال الوقت، ستأتيه الجرافات وتجار البناء، من الداخل والخارج لإقامة أبراج سكنية وتجارية وفنادق ونواد ليلية.

قالت أم عسّاف: «علاء، إن هدموا الحي لا يبقى لنا نحن الفقراء معشّة». سألت أم عسّاف: «ما معنى» معشّة؟ «ضحكت»، كل شيء في هذا الحي يتغيّر حتى لهجاتنا، من السبب يا أستاذ أهي مياه عين الفيجة، أم هواء قاسيون... أم الهروب من الماضي؟ هنا... نحوّل حرف القاف إلى آف «وتضحك أم عساف، وهي تحاول التحدث باللهجة الشامية» عندما يصير «القاف همزة» سيكون الأمر مضحكاً. يقال إن عالم لغة كبيراً جاء إلى دمشق ورأى يافطات انتخابية باللغة العامية، وسمع مذيعاتنا يتحدثن بالعامية، قال لمسؤول رفيع: «أخاف على نبض دمشق من التشوه».

سألتها: «من أين تحضرين تلك الأفكار»؟

قالت: «أنا، يا أستاذ عروبية أباً عن جد».

كتبت «نخلة البادية» تعليقاً على حواري مع أم عساف الذي نشرته:

«عندما تفقد دمشق ياسمينها، ويصير حرف القاف خارج كلامنا المحكي، تفقد دمشق خصوصيتها...

أحياناً أشعر بك تسكن رقماً في قافلة تائهة... أنت تقتل عمرك في سراب الكلمات... كحكايتك مع شذا.

«ما بها شذا»؟

«مجرد زواج يغلفه الزمن بغبار رطب له رائحة البيوت القديمة».

كنت أنهي الحوار مع نخلة البادية بشكل مفاجئ، وكأنني أعلن احتجاجي على آرائها.

في هذه المرة قالت (يجب أن نلتقي، هي مغامرة لي، ومع ذلك أود أن نلتقي ونتحدث)، قلت «عليّ أن أعرف من أنت أولاً، وما الذي تريدينه من لقائنا؟».

«قل، إنك غلّفت روحك بغبار شذا، انفض هذا الغبار عن روحك أولاً!»

-٩-

رحت أتابعها بطرف عيني بصمت، لم أسألها بماذا تفكر، وهل ثمة ما يقلقها... هي بالتأكيد غاضبة مني، ملامح وجهها ونظراتها تقول إنها تتهيأ لتقول شيئاً، حاولت أن أتذكر شيئاً فعلته مساء البارحة، وأغضبها.

في الليلة الماضية، حضرت أمسية أدبية في المركز الثقافي ببلدة دمّر، وبعد الأمسية شربت القهوة مع عادل وحسام في مقهى قريب من مكان الأمسية، وعلى غير العادة تأخرت على العودة إلى البيت، في الواقع، كنت متضايقاً من تأخري، قلت: «عادل أنت السبب، الدنيا حرب، لو أصاب أحد من عائلتي مكروه فكيف سأُخبر؟!، سيكونون قلقين عليّ من حوادث الخطف، هي كثيرة في هذه الأيام للحصول على المال كفدية أو بقصد القتل».

لم أكن أظن أنني سأتأخر إلى العاشرة مساء، كنت أخبرت شذا قبل التوجه إلى الأمسية أنني مهما تأخرت فسأعود في الثامنة مساء، وربما قبل الثامنة، «لا تقلقي»، قالت: «سأظل قلقة عليك، حوادث

الخطف كثيرة»، وأنا أتهيأ للخروج من البيت لحضور الأمسية سألت «ما فائدة تلك الأمسيات التي لا يحضرها إلا أصحاب الأمسية وبعض أصدقائهم؟! وإذا كانت الفائدة الثقافية هي الهدف، تستطيع أن تقرأ أي كتاب في موضوعها على النت. صحيح أننا كنا نحب حضور تلك النشاطات، وكانت القاعة التي يقام فيها النشاط تزدحم بالحضور، ونحاول الوصول باكراً لتأمين كرسي للجلوس، لكن، منذ سنوات وقبل الحرب، لا أحد يحضر تلك النشاطات، الكاتب وبعض المقربين منه، وبعد أن يتمنى عليهم الحضور».

لم أكن مرتاحاً لوقفتها هكذا بصمت إلى جانبي، توقفت عن الكتابة، واتجهت بجلستي نحوها مباشرة، وسألتها: «هل أزعجك تأخري البارحة؟ والله، لم يكن بإمكاني الاتصال لأخبرك... أنا أعتذر».

لم يغيّر اعتذاري من تجهم وجهها...

عادة، تعيش هذه الحالة من الصمت الفاتر الحزين بعد نشرات الأخبار، ويسوء حالها عندما تكون الأخبار تنز دماءً، وذبحاً، وأحزمة ناسفة أمام المدارس وفي المشافي والأسواق... وعندما تسقط صواريخ الإرهابيين على منزل من منازل الحي ٨٦، ويقتل رجال وأطفال ونساء.

ظلت متجهمة. قلت في نفسي: لو أن الأمر متعلق بالأولاد لبادرت إلى الحديث معي في الأمر، عادة... تتحدث إن كان ثمة ما يزعجها منهم وتخبرني.

رحت أتابع من غرفة النوم برنامجاً يبثه التلفاز في البهو عن ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة. لم تعد تلك البرامج تستهوي أحداً، فالأسعار ترتفع، والمواطن على تماس مباشر مع هذا الغلاء المتصاعد، وأم عسّاف تأتينا في كل يوم بأخبار السوق، وتعلّق على تلك الأخبار «لا تصدق أخي علاء ما يقولونه في الإعلام، الفوضى هي السبب».

كنت أسمع صوت التلفاز فحسب، وظل اهتمامي مركزاً على تجهم شذا... فجأة، انتهى البرنامج، راح أحد المحللين السياسيين يتحدث عن الغلاء والحصار وارتفاع الدولار وواجب المواطن في هذه المرحلة، وسريعاً انتقل للحديث عن مؤتمر أستانا.

وفجأة انتقل التلفاز من أخبار أستانا، إلى أخبار النجوم والأبراج.

ومنها إلى الرياضة، وبدأ يقدم برنامجاً عن كرة السلة الأمريكية...

مللت من متابعة التلفاز، ومن وقوف شذا الطويل إلى جانبي بصمت، قلت: «اجلسي، ألم تتعبي، على فكرة، هل أنت متضايقة من تلك التعليقات والرسائل التي تأتي على صفحتي؟ إن كنت متضايقة، سألغي الصفحة من أساسها، ألست السبب في وجود الصفحة؟ قلت لك: لا أريد، وأصريت على يوسف أن يفتح لي صفحة».

ضحكت لحظات، قالت إن ذلك لا يضايقها أبداً، وإنها أكبر من أن تفكر بمثل هذه الأمور، وتستغرب أن أفكر بذلك، إذْ بإمكاني التحدث معهن على الهاتف أيضاً، ولقائهنَّ في أي مكان، وإن لم أجد مكاناً للقاءتي، فلا مانع لديها من دعوتهن إلى هنا في المنزل. «أدركت أن شذا تسخر مني، وهي بالفعل متضايقة من تلك الرسائل والتعليقات... ولأنني لم أجد مجالاً للحوار حول الأمر، وأنها في الأساس لن تحاور في الموضوع، وهي الآن في مرحلة مخاض لتحويل قلقها إلى موقف... بدأت أكتب على الحاسوب بعض الأفكار عن أمسية البارحة...

شطبت ما كتبته، وكتبت من جديد، ثم محوت ما كتبت مرات، رأيتها تتابع ما أكتبه، فتحت صفحتي على منشور كتبته البارحة

حول تدمير الإرهابيين لكتائب الصواريخ الموجودة حول دمشق... وأن المستفيد من هذا التدمير هو العدو الصهيوني. جاءت التعليقات سريعة وكثيرة على المنشور، ثمة من كتب إنها صواريخ النظام ومن الضروري تدميرها. «وكتب آخرون إنها صواريخ بعيدة المدى لمواجهة (إسرائيل)، وليست بنادق لمواجهة المسلحين، فلماذا قاموا بتدميرها»؟

توقفت عند تعليق كتبته ضحى القرنفل: «إنه انتقام (إسرائيلي) لأنها دمرت أسطورة التفوق الجوي الإسرائيلي في حرب تشرين، (إسرائيل) تريد سورية دولة مجرّدة من أظافرها لتصفعها على وجهها متى شاءت».

لم أعقّب على جميع تلك التعليقات ...

سألتني شذا: «من ضحى القرنفل، وما معنى الاسم، ولماذا تختبئ تلك المرأة حول اسم بوهيمي وغبي؟! أخبرتها أنني لا أعرف من هي ولا يعنيني اسمها، وأن ما كتبته عادي ولا يجرح مشاعرك .

في الواقع، توقفت عند ما كتبته ضحى القرنفل، لديّ قناعة أن ضحى القرنفل، هو الاسم الجديد لـ «عشق شام». أضحكني الاسم،

كل أسمائها شاعرية، «ضحى القرنفل» اسم جميل وشاعري وفيه جاذبية. كتاباتها عميقة، وتعبر عن فهم ووعي.

محوت تعليق ضحى القرنفل.

في الآونة الأخيرة، رأيت أن شذا تتوقف عند تعليقات عشق شام بأي اسم جاءت ولا تعلّق، بات لديّ قناعة أن بعض انزعاجها هو ما تكتبه عشق، وأنها قد تنفجر في وجهي يوماً، فالشك يبدأ صغيراً ثم يكبر، هي بالتأكيد تظنها إحدى زميلاتنا في الجامعة. في الآونة الخيرة راحت تسأل عن شادن، يقولون إن قلب المرأة دليلها، وأنا كشذا لديّ إحساس أن شادن هي التي تكتب، ولكن لماذا تخفي شخصيتها وراء تلك الأسماء. قررت أن أسأل حساماً أو عادلاً عن الوضع القانوني لوضع مجد، اتجهت إلى حسام، وجدت عادلاً في منزله، سألتهما.

كيف لي أن أضع رقماً سرياً يمنع غيري من الدخول إلى صفحتي، بت أخشى من ردة فعل شذا... في النهاية، سينفجر غضبها من سلمى أو من إحداهن، هذا الفيس بات مجالاً واسعاً لتبادل الرسائل العاطفية، فعلى الرغم من أن الحرب تتسع، ودائرة الدماء والخوف

تتسع فلا يزال من تشغله الكتابات الرومانسية. قال عادل «لا تفعل، هذا سيزيد من شكوك شذا إن كانت لديها شكوك، والمضحك أن الناس لا يجعلون من الخوف فاصلاً بينهم وبين علاقاتهم العاطفية»، وقال حسام: «لاحظ... في لحظة انفجار ما، يكبر الخوف، وما إن ينتهي الانفجار، وتتوقف أبواق سيارات الإسعاف حتى تعود المنشورات العاطفية إلى طبيعتها، يوم أرادت أمريكا في عام ١٩٦٢ أن تغزو كوبا، مارس الكوبيون الخوف من الموت الذي تحمله السفن الأمريكية في خليج الخنازير بالهروب إلى ممارسة الجنس...

تستيقظ الرغبة في الجنس في زمن الحرب والخوف، فالشجرة قبل أن تموت تولد لديها قدرة على الإزهار والإثمار. كثيرون يتعطشون إلى تساقط المطر العاطفي لغسل ما في دواخلهم من هباب الحرب. ثمة جوع إلى الخبز، وجوع إلى الجنس، هذا المطر العاطفي يرشح إلينا عبر شبكات التواصل».

أعجبني تعبيره «المطر العاطفي». قلت: «إن أخطر ما في هذا المطر أنه يهدم الناس من الداخل».

قال: «استعداد الهدم موجود من قبل، وإلا لما كان...

مطر الحرب كشف مدى ضعف تلك الجدران التي كنا نظنها أسواراً قوية».

راح بأصابعه يمشط شعر رأسه الأشيب المتروك إلى مشارف كتفيه وهو يتنهد، قال:

«علاء، أجمل شيء أن تكون لديك امرأة عاشقة لك من قبل، ليس من أجل مال أو أي أمر آخر سوى الحب، وتهربا من وجع الحرب وقلق الواقع إلى عالم آخر»، واستفاض في الحديث عن صديقات له على الفيس، يمضي الليل معهن وهذا في الأساس ناتج عن حالة الكبت التي عشناها في طفولتنا وشبابنا واستمرت إلى الآن، والفيس بات نافذة لأمثالنا للتنفس عاطفياً، «هو الفراغ، والأيام التي تمر بنا كمريض ينتظر موته، وهو يحاول أن يستثمر كل لحظة يعيشها، مع المرأة وحدها نستطيع أن نمسك باللحظات الهاربة... هذا الفيس بدّل في طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة. وهذا حياة أخرى، نخالها أحياناً قريبة من حياة هارون الرشيد، خليلات، وجوار وغانيات، وأبو النواس يمسك بالزق ويشرب الخمر وينشد قصائده، وداوني بالتي كانت هي الداء، كل

شيء بات مختلفاً عن الماضي، بفعل هذا الخيال الذي نهرب إليه من الواقع، وعندما نستيقظ نكتشف هول ما حدث».

كتبت للهروب من الصمت .

«أبو العلاء المعري أغضبه سبي داعش للنساء، رفع صوته على أبواب مدينة معرة النعمان وقال: «من أعطاكم الحق في سبي النساء واغتصاب الحرائر، أين الدين والمنطق في ذلك، أنتم كفرة وعاهرون».

يضرب الدواعش عنق أبي العلاء المعري بمعول ضخم «أيها الزنديق الكافر»... يترنح رأس أبي العلاء المعري، ويتدحرج على الأرض ثم ينفصل عن الجسد، يدوس الدواعش رأسه بأقدامهم، يتأوه رأس المعري، ويصرخ فيهم: «يا أبناء الشيطان»!

يقومون بتقطيع مفاصله. تتناثر أعضاؤه، الساقان في جهة، واليدان في جهة.

انقطع التيار الكهربائي.

وبدأ الرصاص كثيفاً على مشارف دمشق من جهة الغرب... اقتربت أصوات الرصاص، وارتفعت انفجارات قذائف الهاون

عند مدخل الحي ٨٦ عند الحاجز الأمني، هكذا خمّنت. انفتحت نافذة بيتنا وانغلقت بسبب ارتجاج المكان بالانفجار. انعكس ذلك خوفاً على وجه شذا.

سمعت ريم تعزف على غيتارها لحناً فيروزياً. يثير عزف ريم ذاكرتي بحكايات أبي وأمي وإخوتي وعمتي وشادن.

اندفع هواء بارد وصقيعي من النافذة، وسقطت عن سطح الخزانة أوراق وتطايرت، جمعتُ ما تبعثر. بدت تلك الأوراق وكأن صدأ أصابها، وتطاير غبار عنها، أمسكت ببعض الأوراق، وبدأت بقراءتها، ثمة مسودات لأفكار ومقالات لا أذكر متى كتبتها. بعضها كان مشروع رواية، قرأت على ورقة: «أمسكت ذراعه، ومشت معه من المدخل عبر الصالة الأنيقة الواسعة المفروشة بالسجاد إلى غرفة نومهما، كانا في اشتياق، حملها، إلى السرير، طوّقت عنقه وشدتها إليها».

يأتيني صوت يوسف من البهو: «هل في رأيك يُعدُّون لهجوم على دمشق، هم قالوا إنها معركة اجتياح دمشق»؟

قلت: «شذا اجلسي وأنت واقفة، أنت تربكينني»!

لم تجب، ظلت واقفة كتمثال، مشكلتي مع شذا في صمتها عندما تكون حزينة.

جاء يوسف، وقال بصوت خافت «أبي أريدك في أمر» اتجهت معه إلى غرفته، أخبرني أنه عرف من صديق يعمل في المصرف الصناعي أن الدولة حجزت على أموال زهير مكتبي ونسيم عبد الله وكثيرين، أموالهم المنقولة وغير المنقولة لصالح المصرف الصناعي، لأنهم حصلوا على قروض قبل الحرب ولم يسدِّدوها، وأن اسم أخي مجد من بين الأسماء، استجروه شريكاً في معمل أدوية وهمي، موّله المصرف الصناعي بالملايين، هو أخبرني عن ذلك قبل سفره وحذّرته وتمنى عليّ يومذاك ألا أخبرك، كان يريد بأي طريقة أن يخرج من وضعنا المادي، ويحلم بأن ينقذنا من وضعنا الصعب، وهكذا غرق «هزّني الخبر، شعرت بزلزال يهزني بقوة، «كان لديّ إحساس أن أمراً مثل هذا سيحدث، منذ وقت وشذا تعيش كابوساً، وتؤكد أن أمراً سيئاً سيصيبنا، رجوت يوسف ألا يخبر أمه بذلك. إلى الآن، هي لا تعرف بسفره إلى مصر، في كل مرة تسألني عنه أخبرها أنه لا يغادر المشفى، ولا يريد العودة إلى البيت».

سألتني شذا «ما الذي قاله لك يوسف»؟!

«لاشيء».

شعرت أن رأسي يكبر وأن أكواماً من الصخور تتوضع فوقه، وتحدث فيه انهيارات حادة. الطبيب يوصيني دائماً بالهروب من الحزن والقلق: «قلبك لا يحتمل الحزن، انتبه إلى نفسك».

قبل أن يأتي المساء، فتحت على صفحتي في الفيس، وجدتها مهكّرة، وصارت الشاشة صفحة سوداء، أعاد يوسف صوغ بيانات الصفحة بعنوان جديد وبيانات جديدة.

قرأت ما كتبته «لينا الحبق»، أحياناً، تنشر (لينا) أشعاراً لأنسي الحاج ومقاطع من شعر أدونيس.

حدثتني أنها نزحت من قريتها الفراتية إلى مدينة ساحلية بسبب الحرب التي شنّها الدواعش على قريتها، وفتكت بالأرض والعرض، وأن يد الله حمتها من الاغتصاب: «علاء، حكايتي تصلح أن تكون رواية، هل أخبرك بما حدث؟ في اللحظة التي كان سيغتصبني فيها داعشي، جاءته رصاصة في رأسه، كان بحجم بغل، سقط عني وهربت، مشيت ليل نهار ونهار ليل».

سألتها «هل أنت شادن»؟!

«من شادن؟!... لا».

أرسلت صورتها ورقم هاتفها: «اتصل معي متى شئت».

سألتني شذا: «أهي من صديقات أيام زمان»؟

«أي زمان»؟

هزّت رأسها، وظلت صامتة، وكردة فعل على سؤالها وصمتها المسكون بالقلق والغضب، قمت بحظرها. هزّت شذا رأسها مع ابتسامة فيها بعض السخرية، وكأنها لم تقتنع بتصرفي.

يوم قلت لعادل: «صار من الضروري أن أضع رقماً سرياً لجهازي» .

قال: «هذا تصرّف سيغضب شذا، ويثير شكوكها! عندما ينمو شك المرأة يكبر ويكبر كورم، أبقِ الأمور على ما هي عليه.

كان يوسف وريم في الصالون يتابعون مباراة لكرة القدم بين فريقين محليين، يقف يوسف مع فريق الوحدة الدمشقي، وريم مع فريق مدينتنا الساحلية.

نادتني ريم «مع من أنت أبي، بالتأكيد مع فريق مدينتك».

قلت: «كل المدن مدينتي، وأنا مع اللعب الجميل».

ظلّت أصوات ريم ويوسف في البهو تعلو وتهبط مع تسارع حركة المباراة وبطئها، صوت مذيع المباراة يظل صاخباً كالصراخ.

قلت: في نفسي «من أين يأتون في الإعلام بهؤلاء المعلّقين الرياضيين. في مطلع حياتي، ثمة معلق رياضي يتحرك صوته مع حركة المباراة وكأنه يعزف لحناً في تصاعد ونزول بحسب سخونة الحركة بين الفريقين. هذا المعلّق الرياضي رحل إلى الحياة الأخرى ولم يخلفه أحد... ظلّت أصوات الأولاد في الصالون عالية... عادة، عندما يثير الأولاد الضجيج في البيت، يرتفع صوت شذا وتسأل عن هذا الصخب، كنت أسمع أنفاسها فحسب وكأنها تتظاهر بالنوم، ماذا لو قلت لها: «لماذا تصمتين ؟...لم أرَ السؤال مناسباً، علا صوتي «لا أعرف لماذا هذا الجنون على مشاهدة مباراة بكرة القدم»؟

ارتج المنزل، وسقطت عن سطح الخزانة بعض الأغراض، تلاه انفجار آخر، بدت ملامح وجه شذا مسكونة بالفزع، استمر ضجيج الأولاد مع استمرار المباراة، على الرغم من تتابع الانفجارات من حولنا في الحي وفي الأحياء الأخرى، استقر رأيي على مغادرة البيت...

راحت الانفجارات تتلاحق في الخارج، هو يوم الجمعة، والناس ما زالوا في بيوتهم، ربما أراد الإرهابيون منعهم من الخروج في نزهة أو في زيارة أصدقاء، أو الذهاب إلى صلاة الجمعة. في الجمعة الماضية ثمة إرهابي فجّر نفسه بين المصلين، وقتل الشيخ العلامة البوطي، وتناثرت الجثث على أرض المسجد وفي الشارع المجاور.

ارتفع ضجيج الأولاد وصراخهم في البهو...

يعلن المذيع أن فريق الوحدة يحرز هدفاً في مرمى جبلة. سمعت صوت تحطّم الأريكة وسقوطها على الأرض. قلت: «أظنهم كسروا الأريكة».

ظلت شذا صامتة، نهضت من وراء طاولتي، واتجهت إلى الأولاد، رأيت الأريكة تجثم على الأرض كتابوت الموتى.

قلت: «هذا ما يأتينا من الرياضة»!

تعالى صوت الرصاص، قلت: «الله يعطينا خير هذا اليوم».

قطع التلفاز بث المباراة، وأعلن عن سقوط قتلى وجرحى في الحي ٨٦ قرب المدرسة. قلت: «الحمد لله أن المدرسة في يوم

عطلة». بث التلفاز مشاهد من تفجيرات حي جرمانا، ثمة أجساد على الأرض لرجلين وثلاث نساء وخمسة أطفال: ولدان وثلاث فتيات صغيرات إحداهن رضيعة. وكانت واجهات المحلات التجارية ونوافذ المباني القريبة مهدّمة وعلى الأرض حول الجثث أحجار من الجدران المتهدّمة وزجاج نوافذ، وفي العواجل كتب في الأسفل: «قذائف سقطت في ساحة الأمويين أمام مبنى هيئة الإذاعة والتلفزيون».

عاد التلفاز إلى بث المباراة.

ظلّ تحطم الأريكة يشغلني، في الشهر الماضي استهلك إصلاح البراد أغلب راتبي، وقبل ذلك إصلاح الغسّالة، واليوم الأريكة الوحيدة في بيتنا! مصاريف البيت لا تنتهي، وقيمة رواتبنا الشرائية راحت تتدنى... كل يوم، والليرة في هبوط، وصل سعر الدولار إلى مشارف الستمئة ليرة.

كتبت سلمى على الخاص: «علاء، هل تحتاج إلى نقود، أنا أعرف وضع البلد عندكم»؟

قلت لشذا: «ثمة صديقة على الفيس تسألني إن كنت أحتاج إلى مساعدة، ما رأيك»؟

«ولماذا ستقدّم لك مساعدة؟ أهي من صديقات أيام زمان»؟

«المعنى»؟

«قلبي يقول إنها سلمى».

«لماذا سلمى»؟

«ليس ثمة امرأة غيرها تقول لك ذلك. وربما شادن».

«لماذا لم تقولي ريتا»؟

«لا، ريتا لم تحبك يوماً، لم تكن بالنسبة إليها سوى نزوة».

سقطت قذيفة هاون في موقع قريب من المنزل، اهتزت جدران المنزل.

سألني يوسف: «ألم تلاحظ أن الأحياء الفقيرة عرضة للقصف أكثر من غيرها».

انقطع التيار الكهربائي، قالت أم عسّاف: «إشعال الشموع مكلف. ثمة بيوت تحترق بسبب الشموع، من أجل ذلك اشتريت قنديلاً يعمل على الكاز، هل أطلب من عسّاف أن يشتري لكم قنديلاً، هو أوفر لك من الشمع، صارت الأمور تحسب بالليرة».

فشلت في تخمين ما الذي يزعج شذا. تساءلت، هل قرأت شذا ما تكتبه سلمى على صفحتي؟ أظنها تعرف أن سلمى لم تعد تعني لي أكثر من حكاية من الماضي، والماضي مات وانتهى. وتعرف أنني لا أؤمن ببقاء وخلود الحب الأول، وأنه ليس أكثر من ذكرى من الماضي. ربما تختلف سلمى عن غيرها فهي تجربتي الأولى مع المرأة، وليس في الحب. يمكنني القول إن شادن هي تجربتي الأولى.

قلت لكسر صمتها: «لا أعرف لماذا يتفاعل الناس مع مباريات كرة القدم؟... صارت أمور الأقدام أهم من أمور الرأس».

وانتظرت أن تعلّق على ما قلته.

قلت: «الأريكة كُسِرت بسبب المباراة، علينا أن نحضر من يصلحها ويصلح زجاج النافذة».

نظرت من النافذة، ثمة دخان أسود يتصاعد من مكان لم أتبينه إن كان في هذا الحي أو في الحي المجاور، بدا الدخان قريباً، سمعت صوت بوق سيارة إطفاء تمر، وتبعه بوق سيارة إسعاف.

قلت: بصوت نزق: «سأخرج من البيت، تعبت من البقاء هنا».

قالت شذا: «تأخرت، ثمة من ينتظرك».

قلت: «لم أفهم قصدك»!

«لا، تفهم».

عند الباب الخارجي، جاءني صوتها: «علاء».

عدت إليها، ووقفت أتأملها بهدوء، لا تزال أجفانها ذابلة وسألتها «نعم؟ ماذا تريدين؟...

لا أعرف لماذا تعيشين حالة التأزم هذه؟!، هل أنا السبب أو الأولاد أو الظروف»؟!

نهضت من السرير، ووقفت قبالتي، وأمسكت بساعدي عند المرفق، وقالت: «أَقسمْ بالله أنك ستجيب بصدق وصراحة»، قلت: «والله سأجيب وبصدق».

«أما زلت تحبني»؟

بدا سؤالها غريباً وغير متوقع، وأمسكت بضحكة همت أن تركض على شفتي، خشيت أن تظن أنني أستخف بسؤالها، وصرت أكثر اقتناعاً أن ما يزعج شذا هو حالة عاطفية.

في رأي حسام «زلزال المرأة العاطفي يأتيها مفاجئاً كزلزال الطبيعة، وعليك أن تتقن فن التعامل معها، كما تتعامل بهدوء ووعي مع الزلازل».

مقدمة الصمت التي سبقت السؤال، ونظراتها المتعبة ووجهها الذي بدا حزيناً، كل ذلك كان يجعلني أقتنع أن سؤال شذا هو اتهام أكثر مما هو سؤال، فهي عادة...لا تسأل إن كنت أحبها...

منذ زمن طويل لم تسألني هذا السؤال، ولم يدر بيننا حوار حول إن كنت أحبها أو تحبني، تظل حواراتنا حول حياتنا وظروفنا وحول الأولاد، كنت كلما حاولت أن أبثها عبارات فيها حب، تنفر من كلماتي، وتقول:

«علاء، تجاوزنا زمن العبارات الرومانسية».

آخر مرة سألتني فيها إن كنت أحبها، كان ذلك بعد ولادة يوسف... يومذاك، لم يكن سؤالها بهذه الصيغة المباشرة، سألت: «هل الأبوة ستضعف من حبك لي»؟

دفعت بيوسف إليّ: «انظر، كم يشبهك! وأنا سعيدة لأنه يشبهك، لا أريده أن يكون معشوقاً كأبيه».

لم تكن شذا طويلة، هي متوسطة القامة وممتلئة الجسم قليلاً... سمراء، وشعرها الخرنوبي كثيف وطويل، تتركه طليقاً كذيل حصان إلى ما فوق خصرها، ومربوطاً عند الأعلى بمنديل.

في السنوات الأخيرة، راحت تلفّ شعرها (بإيشارب) من الضروري أن تكون ألوانه متناسقة ومنسجمة مع ألوان فستانها... وهي بطبيعتها، تهوى لبس الفساتين الطويلة إلى ما تحت الركبة، والمزركشة بألوان مضيئة تميل إلى الأزرق والأبيض والرمادي، يوم تمنيت عليها أن ترتدي بنطال جينز كما كانت في زمن الجامعة، سألتني: (وبجينز ممزق عند الركبتين؟!...)

علاء، كيف يخطر في بالك أن ألبس بنطال جينز، كبرت، وصرت أماً، أعدني إلى زمن الجامعة لأرتدي لك ما تريده، وأرقص لك، هل تحب الرقص؟ أظنك كنت ترقص مع ريتا، هي قالت لي إنك رقصت معها في ليلة رأس السنة، وضحكت منك لأنك لا تجيد الرقص، هل تركتك ريتا لأنك لا تجيد الرقص؟! أظنها كذلك، لأن جماعة المجتمع المخملي عليهم أن يتقنوا الرقص الغربي، سيكون منظرك جميلاً وأنت ترقص رقصة التت تشا.

«أنت تسخرين مني»؟!

«صديقاتك على الفيس ألا يلبسن الجينز»؟

قرأت في قولها هذا اتهاماً...

وحرصت ألا أرد، أي ردّ سوف تفهمه بأنَّ لديّ رغبة في الهروب منها إلى امرأة أخرى، وأن صديقات الفيس يشغلنني. خطر لي أن أصرخ في وجهها «ألست من ألزمني بفتح صفحة الفيس». قلت: في نفسي «عليّ ألا أصعّد الحوار، يكفي ما في رأسي من أزمات، وحده وضع مجد يجعلني في وضع يعصف بي لدرجة أخشى فيها أحياناً من السقوط فجأة كشجرة سنديان أتعبها الزمن وهزتها العاصفة»، شتمت خالي نسيم وبيت المكتبي والظروف.

وقفت شذا قبالتي تماماً، ونظراتها على وجهي، ارتفع صوتي حاداً على الرغم من محاولتي أن أظلّ هادئاً:

«أنت ستصيبينني بجلطة قلبية أو دماغية، كرهت الحياة هنا».

وخرجت، أمسك بي يوسف عند الباب «أبي، ما بك، ماذا يحدث»؟

قلت: لا أستطيع البقاء هنا، أمك تريد موتي قبل الأوان، ألا يكفينا الحرب، في كل يوم نموت ألف ميْتة».

- ١٠ -

مرّت عربات الخضار، ودخلت الأزقة الضيقة في الحي، وتوقفت نداءات الباعة. ظل التلفاز يبث برامج عادية، ثمة مذيعة قصيرة ونحيلة تجري لقاء مع فنانة مغمورة قدّمت دوراً بسيطاً في مسلسل محلي. تتحدث الفنانة المغمورة بتعالٍ وتقول: «الدراما ليست بخير، والممثل الجيد غائب»، وتزيح خصلة من الشعر الأشقر عن جانب من وجهها الممتلئ:

وتابعت «الدراما ظلت بعيدة عن الحرب».

أدار يوسف مفتاح التلفاز على محطة الجزيرة القَطَرية، تقدّم المحطة عواجل شاهد عيان:

«الطيران (الإسرائيلي) يقصف محيط مطار المزة».

«الثوار يهاجمون دمشق من أطرافها... والطيران (الإسرائيلي) يقصف مواقع جيش النظام، وقوات النظام مرتبكة، سقوط قتلى وجرحى من ميليشيا النظام في دمشق وحمص وحلب ودرعا.

تركيا تحشد قواتها في الشمال السوري، وتهدد بالدخول إلى الأراضي السورية لفرض منطقة حماية أمنية.

أغلق يوسف التلفاز، وشتم (إسرائيل) وتركيا والحرب وأمريكا.

«أبي، سأصعد إلى السطح لأرى ما يجري في منطقة مطار المزة.

علا صوت شذا: «يوسف، لا تصعد».

سمعت صوت ارتجاج الباب خلف يوسف، قالت شذا: «لا تدعه يصعد».

قلت: «لم أعد قادراً على إدارة أحد. حتى أنت لم أعد قادراً على فهمك».

«لديك ما يشغلك عنهم، وعني».

عبرت شكوك شذا رأسي كإبر حادة. بماذا تفكر؟ أ تظن أنني على علاقة بامرأة أخرى؟

هو الشك يكبر ويستطيل، ويغطي في النهاية على كل شيء جميل بيننا.

شذا لا تتكلم هكذا جزافاً. في المواقف الدقيقة، تصوغ أسئلتها وكلماتها بدقة وبكلمات قليلة.

في المواقف الباهتة والغامضة بيننا، أكتفي باحتضان رأسها وتقبيله.

جاء يوسف قادماً عن السطح:

«أبي، النجار، أبو محيي الدين، العوض بسلامتك... قبل وصوله إلى منشرته بمئة متر سقطت عليه قذيفة، وتفجرت المنازل القريبة من الانفجار، ثمة أطفال كانوا في الشارع تناثرت أجسادهم».

آلمني خبر أبي محيي الدين...

كان أبو محيي الدين نازحاً من ريف القنيطرة، يبلغ الخمسين من عمره، يروي لي كلما التقينا حكاية نزوحه من الجولان عام ١٩٦٧، في مرات كثيرة يروي حكايته ويبكي... تزوّج بعد أن قارب الأربعين، لديه ولدان صغيران: صبي وبنت، لم يكن نجاراً بارعاً، لكن الناس في الحي يلجؤون إليه لإصلاح أثاثهم المنزلي، لأنهم غير قادرين على استبدال أثاث منازلهم بأثاث جديد.

همس يوسف «أخي مجد، يعيش حياة الجوع والتشرد في مصر، زهير مكتبي وزوجته وأولاده غادروا إلى ألمانيا وتركوه، هم يملكون تأشيرات دخول إلى ألمانيا، هو اليوم يعيش مع ثلاثة سوريين في غرفة واحدة، ويعمل في مطعم، أخبرني أنه يريد العودة ولو وضع في السجن، يريد مالاً للعودة، كيف سنجد له حلاً»؟!

«لا أعرف، أنت تعرف حالنا، ولا أستطيع أن أتحمل دخوله السجن».

اغرورقت عيناي بالدموع. إلى وقت قريب، كنت أرى نفسي أكثر الناس سعادة؛ زوجة طيبة، وأبناء مطيعون ومجتهدون في دراستهم، مع الحرب، تغيرت كل الأشياء، لم يعد راتبي وراتب شذا يكفي لعيشنا، وكثرت طلبات الأولاد، وها هو ذا مجد يدفع بي إلى نوبة قلبية قد تأتيني في أي لحظة. قال يوسف «أبي أنا سأتدبر الأمر، سأرسل له كل ما معي من المال، لم أعد أفكر بأمر الدراسة خارج البلد».

قلت: «مجد لن يعود، هو يريد المال فحسب، دعه يعتمد على نفسه».

من النافذة... رحت أتحرى أماكن مصدر أصوات رمايات بعيدة... وثمة أبواق سيارات إسعاف وسيارات إطفاء تمر مسرعة باتجاه الحي، عبرت طائرتا ميغ باتجاه الشرق على ارتفاع منخفض، دارتا فوق دمشق دورة كاملة وغابتا خلف قاسيون. قال يوسف: «الحرب تتسع».

مشهد الحرب يكبر في رأسي، يتحرك كزلزال.

وقضية مجد ومطالبة المصرف له بدفع ما عليه، وحياته المتشردة في القاهرة تظل كالسكاكين تحز رأسي... أذكر أنه قال لي مرة: «إن خالي نسيم وزهير عرضا عليه إدارة مؤسسة لتصنيع الدواء، يومذاك قلت له: «ابتعد عنهما، كل منهما أسوأ من الآخر، وفي النهاية ستكون أنت الضحية، لم يأتِ على ذكر قرض من المصرف، وها هو اليوم الضحية».

طلبت من عادل أن يسأل لي مدير المصرف عن قضية القرض، وكيف حدثت وما الحل؟ ومجد الآن في القاهرة، ونحن لا نملك شيئاً لأجله.

أخبرني عادل، بعد أن سأل مدير المصرف، بأنه عندما يعود مجد إلى البلد سيعتقل، وأن شركة الدواء وهمية لا وجود لها، وأن

القضية لعبة على مجد من قبل زهير ومدير المصرف الفار من البلد ومعه ملايين الليرات .

اعتصرت رأسي بكفي، ضجيج أبواق سيارات الإسعاف والإطفاء وصوت التلفاز، وأزيز طائرات كالتي لا أعرف نوعها أهي سورية أم (إسرائيلية) أم روسية يفجّر رأسي.

في الآونة الأخيرة، منذ أيام وابنتي ريم تقول إنني بت عصبي المزاج، وإنَّ علي أن أكون هادئاً من أجل صحتي، وإن الغضب هو من أخطر الأمور عليّ: «أقابل ملاحظات ريم بابتسامة»، سألتها: هل أمك من تقول لك تلك الملاحظات وتدعوك لمطالبتي بالهدوء من أجل صحتي؟! لم تجب، عَددت ما قالته ريم مبادرة طيبة من أمها، على الأقل أجد فيها بعض الحنان الذي بات ضرورياً لأعصابي المتعبة.

قال يوسف: «أبي، لماذا لا نغادر دمشق كما يفعل آخرون»؟

هي المرة الأولى التي يطلب فيها يوسف مغادرة دمشق.

بت أشعر أن أجواء بيتنا عاصفة، والجميع يطلقون لأسئلتهم وقلقهم العنان بشكل مباشر أو غير مباشر، ويحملونني متاعب

قلقهم، كانت شذا هي التي تتحمل أعباء الواقع، وتواجه أسئلة الجميع، تمرر اليوم أسئلتها وقلقها، وتشعرني أن فجوة كبيرة باتت تتعمق بيننا.

في الواقع كان موت أبي محيي الدين أشبه بجرس يقرع الخوف في نفسي من المستقبل.

سألت يوسف: «وإلى أين سنهرب؟».

«كما يفعل الآخرون، إلى أي مكان في أوروبا».

وضعت يدي على كتفه، وهززته: «لا أتمنى أن أسمعك تتكلم هكذا»!

رويت له لقائي مع «أبي محمد» في قرية عمتي فاطمة عندما زرته معزياً بشهادة حفيده صالح، قلت له: «يا عم أبا محمد، فقدان الشبان خسارة كبيرة». نظر إليّ باستغراب: «استشهاد الشباب قربان من أجلنا. عدونا، يستهدف وجودنا، الشهداء هم من يزرع أوتاد وجودنا في الوطن... هذا الرجل أكثر فهماً وأكثر عمقاً في فهم العلاقة بالوطن من مثقفي هذا البلد كلهم».

قال يوسف: «هذا مجرد كلام عاطفي».

ارتفع صوت انفجار قذيفة هاون سقطت في مكان قريب، قال يوسف: «قد تسقط القذيفة القادمة على بيتنا».

بدت دمشق تحت غيمة سوداء، ورأيت أسراباً من طيور الحمام تطير مفزوعة في الاتجاهات كلّها.

تذكرت اليوم الذي غادرت فيه بلدتنا إلى الجامعة. في مساء ذاك اليوم الذي سبق مجيئي إلى دمشق للالتحاق بالجامعة، سهرت مع سلمى على الشاطئ. كان القمر بدراً، والنجوم تتفتح بقوة في حدائق السماء، وأضواء زوارق الصيادين تزرع البحر بوهج جميل... تبدو الحياة بسيطة، المدينة صغيرة والناس فيها متحابون، والشوارع لا تزدحم بالسيارات، وكل شيء يوحي بالبساطة، قالت سلمى ونحن نجلس على مقعد حجري قبالة البحر، ونأكل أكواز الذرة الصفراء:

«سأشتاق إليك، ماذا لو هربت معك إلى دمشق أو هربنا معاً إلى أي مكان في هذا العالم»؟

في الصباح، رأيت سلمى في الكراج تنتظرني، سألتها: «ما الذي جاء بك»؟

أمسكت بيدي.«جئت لوداعك».

وظلت واقفة قبالة نافذتي تنظر إليّ، عندما تحرّك الباص، أرسلت على كفها قبلة، ولوّحت لي بيدها. سألتني المرأة الجالسة إلى جواري: «من تكون تلك الفتاة»؟

وعندما لم أجبها، نادت على السائق: «أبا جعفر، افتح الإذاعة على أغنية، أو على نشرة أخبار».

صدح صوت فيروز: «شآم أهلوك أحبابي».

مازحها السائق: «حظك فيروزي».

بدت المرأة على مشارف الخمسين، ضحكت «يا حسرة! راحت علينا، يا أبا جعفر».

رفع السائق صوت الإذاعة كأنه أراد أن ينهي الحوار مع المرأة.

كانت حرارة الجو في داخل الحافلة مرتفعة وخانقة، بدأت أجساد الركاب تنز عرقاً له رائحة ملحية، وامتزجت رائحة عرق المرأة الجالسة إلى جانبي مع رائحة عطرها.

أسندت رأسي إلى جدار النافذة، «راحت أظافر الشمس تنشب أصابعها في رأسي»، وتثير أكواماً من الأسئلة القلقة، وشعرت

أنني ذاهب إلى المجهول، كان موقف حافلات «الهوب هوب» في قلب دمشق... وجدت خالي نسيم بانتظاري في موقف الحافلات، ركبت إلى جواره في سيارته الأنيقة التي تشابه سيارات الرجال المهمين... أشعل خالي لفافة تبغ، كانت رائحة الدخان عطرية، وبقي صامتاً وظلّ يدخن. كان مكيّف السيارة ينفث هواء بارداً. وكان الجو حاراً في الخارج، تركت رأسي على مسند السيارة، أدار خالي مفتاح الإذاعة، صدحت أغنية للمطربة صباح، «أيام اللولو»، يبدو أن الأغنية لم تعجب خالي، وضع شريطاً في المسجّل للمطرب فؤاد غازي. صدح مسجّل السيارة بأغنية عاشقة: «لزرع لك بستان ورود»، لامست كفه وجهي وهو يقود سيارته: «لا تكن حزيناً! الحزن لا يجلب إلا الحزن».

كان موقع خالي في الجمارك مهماً. في سنوات قليلة، صار وضعه المادي فوق الريح وكانت أمي تقول: «نسيم ذكي ويعرف كيف يجني رزقه، ليس كأبيك»، وكان أبي يقول: «نسيم أكثر خبثاً من الشيطان».

كان الغروب يستنفر ملايين المصابيح الكهربائية في طريقنا إلى حي «دمر»... وتبدو دمشق كرة من الضوء في جوفها مبانٍ،

وسيارات وبشر، وضجيج. مدينة أذهلتني باتساعها وصخبها وأضوائها، تخيلت نفسي في حلم مفزع. كان استقبال زوجة خالي فاتراً... ومن رأس شفتيها الملونتين بحمرة شفاه فاقعة... قالت: «لو تركك أهلك في جامعة تشرين أما كان أفضل لك»؟

قال خالي: «عيب، يا جهينة. هذا سؤال»؟

«أليست هي الحقيقة»؟

بدت زوجة خالي بدينة. تميل قليلاً إلى الطول. سمراء، شعرها ملوّن بصباغ أحمر. وتبدو شفتاها الملونتان بأحمر شفاه فاقع كبيرتين وغليظتين. لم أرتح لها. بدت غليظة فجة ومتجهمة... جاءت ابنة خالي، بتول، سلّمت بخجل، وبدت رقيقة ولطيفة. تشبه إلى حد كبير أمي... أحببت وجهها وابتسامتها على شفتين رقيقتين كورقتي ورد جوري... وبدا عنقها طويلاً ناعماً، تتلوى خصلات من شعرها الخرنوبي حوله، وتهبط إلى صدر نافر قليلاً.

قالت بتول: «لم أر أحداً من أقربائنا قبل الآن».

بدت طيبة وحنونة، وفي وجهها براءة:

«أنا سعيدة برؤيتك عندنا».

نظرت إليها أمها نظرات حادة، وطلبت إليها الدخول إلى غرفتها للدراسة؛ رفضت بتول المغادرة، وقالت: «هي المرة الأولى التي أرى فيها ابن عمتي».

كان من الصعب عليّ البقاء في هذا الجو المتوتر، قلت: أنا متعب من السفر، وأريد أن أنام.

سألني خالي: «قبل أن تأكل»؟

قلت: «أكلت في الطريق».

في الواقع، كنت جائعاً. لم أتناول شيئاً، عندما وقفت الحافلة في استراحة جنوب مدينة حمص، نزل الركاب وتناولوا طعاماً، شربت كأساً من الشاي فحسب.

دلّني خالي إلى غرفة نومي... ثمة سرير أنيق، وطاولة وحولها كرسيان جلديان، وخزانة خشبية من ثلاثة أبواب... فيها مرآة واسعة وطويلة. رأيت وجهي في المرآة أصفر باهتاً وحزيناً...

جاءني وجه سلمى، ألقيت بجسدي على السرير... راح رأسي يركض على الشاطئ، ويتأمل الموج والزوارق والنوارس. انتشلني من شرودي صوت زوجة خالي في الصالون تقول لخالي: «نسيم...

أنت تعلم أنني لا أحب أختك ولا أولادها... ولا أتمنى رؤيتهم هنا، وهذا ابن أختك بالذات، لا أريده أن يأتي إلينا، لديّ بنت وأنا حريصة عليها».

قال خالي: «رتبت له سكناً في المدينة الجامعية».

تحرك الليل ببطء سلحفاة متعبة على رمل رخو... ثمة نسمات باردة راحت تهب من النافذة، وأنا أتطلع نحو قاسيون، بدا قاسيون ناهضاً إلى أعلى، والقمر يتفتح وراءه، وثمة أضواء هاربة من السفح نحو عمق دمشق المزدحمة بالأضواء.

في الصباح، رأيت بتول في وجهي تقف في الصالون. فاجأتني بقولها: «استيقظت باكراً من أجلك... خفت أن تغادر قبل أن أراك».

أخرجني من شرودي صوت أم عساف وهي تتحدث عبر الهاتف بصوت عال عن القذائف التي سقطت. من عادتها عندما تتكلم أنْ ترفع صوتها عالياً، وعندما تكون في الغرفة المجاورة لمنزلنا أو في حديقة المنزل نسمع ما تقوله تماماً، وقلت لها مرات: «يا أم عساف، يسمعك أهل الشارع وأنت تتكلمين» تضحك «أنا فلاحة، ولا أستطيع أن أتحدث بهمس كنساء المدينة، لا أسرار لديّ لأخاف».

يأتيني الماضي كأمواج بحرية متلاحقة.

قلت لصديقي حسام عبر الهاتف: إنني أعيش كوابيس الماضي والحاضر، وبين الزمنين أشعر كأن رأسي في أرجوحة، ضحك: «هي الحرب، جميعنا نريد أن نهرب من الوعي إلى اللاوعي، ومن الحاضر إلى الماضي... هل تغيّرت عواطفك تجاه شذا»؟!

«ماذا تقصد»؟

«هل بت تملها»؟

«علاقتنا عادية، وحياتنا تسير وفق روتين واحد من الصباح إلى النوم، خلال النوم كل منا يصير رهن أحلامه وكوابيسه، لكل منا كوابيسه التي يرويها للآخر مع القهوة، أحياناً، تكون كوابيسي مفزعة».

«كلنا نعيش الحالة نفسها».

اتجهت إلى جهاز الحاسوب، قرأت ما كتبت «عشق شام» على الماسنجر: «علاء، صارحني، هل أنت سعيد في حياتك مع تلك الجولانية... أذكر أنني رأيتكما قبل زمن طويل، كانت تلبس ثوباً أحمر. لا أحب الثياب الحمراء، أحببت ذات يوم أن

أهديك قلباً، كل القلوب التي كانت في محلات بيع الهدايا بألوان حمراء، صرفت النظر عنها لأن لونها أحمر، أذكر أنني رسمت لك زهرة ياسمين على ورق أخضر، وكتبت رسالة، من حظي أو من سوء حظي لم تصلك تلك الرسالة لسبب لا أتذكره الآن، وعندما التقينا، وكان يوم أحد على ما أذكر، كنت تقف وحيداً في ساحة الكلية، وكنت تقرأ في كتاب، لم أحاول أن أعرف عنوانه، وعندما صرت إلى جوارك، أغلقت الكتاب، وأردت أن تقول لي شيئاً، هي عادتك، تهم بالقول، وفي النهاية لا تقول ما تود قوله، خطر لي أن أسألك هل تحبني، وصل السؤال إلى مشارف شفتي، لكن تلك الجولانية جاءت وانضمت إلينا، شعرت بها تمسك سكيناً وتذبح سؤالي كما تذبح الدجاجة.

أغلقت الحاسوب بعصبية.

لا تزال شذا في جلستها على السرير جامدة، ورأسها منحنٍ إلى أسفل.

خطر لي أن أمسك بها من شعرها وأصرخ فيها، معلناً غضبي منها ومن الأولاد ومن الحرب ومن الدنيا كلها، تماسكت،

كل شيء يضيق حولي ويعتصرني، شعرت بزوغان في عيني، وخشيت على نفسي من السقوط فأسندت رأسي إلى الجدار .

سألتني ريم: «بابا، هل أنت بخير»؟!

أومأت برأسي: «نعم».

-١١-

كان عادل على الهاتف:

«تعال، أنتظرك في مقهى زهرة النارنج، وهناك نتابع مباراة سورية وأستراليا في بطولة آسيا، ونتحدث عن هذه الدنيا وعن هذا العمر الشقي. كلما لاح لنا حلم نتجه إليه، وجدنا أنفسنا عند حافة حفرة وما أمامنا سوى السقوط فيها... في أي لحظة سنسقط، مسألة ليس بإرادتنا، ولكننا سنسقط. علاء، السقوط في النهاية أكثر راحة لنا من الوقوف إلى جوار الحفرة وتأملها وهي تزداد عمقاً وقتامة».

«أنت متشائم اليوم»؟

«وغارق في التشاؤم».

أغلقت الهاتف، وقلت: بصوت عال لتسمع شذا: «عادل يحتاجني، وأنا ذاهب إليه».

كانت تدير ظهرها، بان عنقها من خلف ناعماً تحت شعر خرنوبي بدأ الشيب يوشيه. خطر لي أن أحتضنها وأقبّل عنقها، وأعلن لها عن

حبي وأن انزعاجها يؤلمني، خشيت أن ينفجر صوتها في وجهي، ويأتي الأولاد ليسألوا: «ما الذي يجري»؟

وضعت شالي الصوفي حول رقبتي، وقلت لها:

«إن احتجت شيئاً اتصلي بي على رقم عادل».

قالت: «هناك من يحتاج إليك».

لفحني هواء بارد وأنا أفتح الباب، أمسك بي صوت يوسف:

«البرد سيؤذي صحتك».

«لا تخف... عمر الشقي (بقي)».

تذكرت وأنا في الشارع أنني نسيت ارتداء معطفي وقبعتي الصوفية، عادة، كلما خرجت من البيت في أيام البرد، تذكرني شذا بارتداء الملابس السميكة وقبعتي وشالي الصوفي، وتلقي محاضرة طويلة عن مخاطر البرد. قررت عدم العودة إلى المنزل لارتداء المعطف والقبعة. بدا الشارع ضيقاً ومحفّراً بعد القذائف التي تساقطت خلال الأسابيع الماضية... ويد أمانة العاصمة لم تلمسه بحفنة إسفلت.

رأيت أم عسّاف، قالت وهي تتأمل الحفر المملوءة بماء المطر والصرف الصحي والوحل: «اكتب عن هذا الواقع، اسأل لماذا يتعرض حيناً لسياسة التقزيم، عندما جاءت الحرب جاؤوا يستنهضون وطنية الناس، قالوا: «الوطن في خطر، وأنتم الرجال والأبطال والشرفاء وأبناء الثورة، علاء... هل سمعت بقصة ابن زبيبة؟ كان بنو عبس ينادون عنترة بابن زبيبة أي ابن العبدة، وفي الحرب ينادونه فارس بني عبس، نحن اليوم، ينادوننا فرسان الوطن، تعالوا على الأقل وضعوا حفنة من الإسفلت في هذه الحفر التي تتعثر فيها حتى البغال».

قلت: «سأكتب».

راحت تضحك، «وهل تضمن أنهم سيقرؤون».

«لا».

تأملت وجهي في زجاج إحدى الواجهات الزجاجية في البناية الجديدة المقابلة لخزان الماء، بدا وجهي كورقة أمسكت بها يد قوية «وفركتها». ثمة شيب أتى على شعر ذقني من أسفلها، وبدا شعر رأسي مشعثاً وطويلاً، فأنا لم أمشطه منذ أيام، كنت أكتفي

بتمرير أصابعي مبللة بالماء فيه. تساءلت: «لماذا أهمل نفسي؟ أيعقل أن شذا تريدني مهملاً لحالي»؟...

قلت: «ربما للبقاء خارج اهتمام النساء»؟...

لأول مرة يخطر في بالي هذا السؤال، ولأول مرة أشعر أن سنوات عمري مرت على هامش الإهمال ككيس من أوراق ممزقة أصابها الاصفرار ولم تعد صالحة إلا للرمي في حاوية... تظلّ اهتماماتنا أنا وشذا، تتجه إلى توفير حياة أفضل لأبنائنا، اهتماماتهم بسيطة، وأحلامهم بسيطة، هم كبروا الآن، وكبرت أحلامهم، وكبرت أسئلتهم، صارت أشبه بالاتهام، يعدّون أنفسهم سجناء، وأنا وشذا نقيم حولهم جدران المواعظ والأفكار الصادمة».

مشيت بخطوات سريعة، وسرعان ما شعرت بالتعب. توقفت، عليّ أن أعترف أنني لم أعد شاباً. مشيت بخطوات بطيئة أتأمل الشارع الضيّق، وأحاول عدم السقوط في الحفر المليئة بماء مطر سقط ليلاً، وبمياه الصرف الصحي.

توقفت إلى جواري سيارة أجرة. «اصعد عمي، أبو يوسف» ... كان عساف جارنا.

حدثني عن قسوة حياته، ثمة من يولد وفي فمه ملعقة من ذهب، وثمة من يولد وفي فمه ملعقة من شوك، يوم مات أبي وجدت نفسي في مواجهة الحياة أحمل عبء أمي وأخي.

قلت: «أمك قوية، وعملها في بيع الملابس المستعملة يتحسن، لم يهزمها الزمن ولا استشهاد الزوج».

حاولت أن أعطيه أجر ركوب سيارة الأجرة لكنه رفض: «عيب، أنت بمنزلة أب».

بدا قلب مدينة دمشق خاوياً إلا من بعض السيارات والمارة.

من بوابة المقهى، رأيت عادلاً يجلس متهالكاً على كرسي خشبي حول طاولة قريبة من شاشة تلفاز كبيرة معلّقة على الجدار، وإلى جواره يجلس شابان وفتاتان. بدا المكان مزدحماً بشباب وشابات من أعمار مختلفة، ودخان لفائف التبغ والنراجيل يشكّل غيوماً رمادية تجعل الرؤية إلى الداخل صعبة، وتضج أصوات عالية.

عند العتبة وأنا أدخل المقهى، ثمة نادل يحمل صينية قهوة، وكأسين من المتة.

رحّب بي «أهلاً أستاذ، ليس ثمة مكان».

ناداني عادل تعال، تعال، تأخرت يا رجل... اجلس، حجزت لك هذه الكرسي، كثيرون حاولوا الحصول عليها، كنت أقول لهم: «أحتجزه لصديقي الكاتب علاء يوسف غانم، ألا تقرؤون له؟ كنت أقول لهم ذلك بتفاخر. اعتقدت أنهم سيسألون عنك، وينتظرون مجيئك، لا أحد اهتم بما قلت: هذا الزمان ليس زمن الثقافة. اجلس لماذا تقف؟! بصعوبة كبيرة وبوساطة كبيرة مع صاحب المقهى استطعت تأمين مكان لي ولك، طقّ قلبي من البيت، يا رجل، كيف تطيق الجلوس في البيت، لا أظنها أوامر شذا، لا أظنها تريد قعودك في البيت عكس زوجتي، تريدني أن أغرب عن وجهها من البيت، الحمد لله هي اليوم بعيدة عني، أسأل نفسي إلى أين سأذهب بعد أن عجّزت؟ في الماضي كانت تحاسبني على الدقيقة، اليوم اتصلت معك وكلي قناعة أنك لن تأتي، الحمد لله أنك أتيت، كيف رضيت أن تخرج من جحرك؟ بالتأكيد ثمة شيء حدث في هذا العالم الآن! عمرنا يمرّ، يقولون ساعة لربك وساعة لحبك».

وتلفّت إلى شابين وفتاتين يجلسون إلى جوارنا إلى الطاولة.

قال لهم: «أعرّفكم على صديقي الكاتب علاء يوسف غانم».

لم يلتفت إلينا أحد، ضحك، وقال: «أرأيت؟!... هم في واد آخر، الثقافة آخر همهم، لمن تكتب، إذا كان الشباب لا يقرؤون لك أو لغيرك، والكبار لا يقرؤون، والمسؤولون لا يقرؤون، بالتأكيد المسؤول لا يقرأ، وأنا لا أقرأ... هل تكتب لك ولزوجتك، أو لأولادك، لا أظن أن أولادك يقرؤون ما تكتبه».

ونادى على النادل: «واحد قهوة، يا ولد».

ونظر إليّ: «علاء، متابعتك للمباراة اليوم ربما تكون موضوعاً لمقالك القادم. لماذا لا تفهم المتغيّرات التي تحصل في الواقع. اكتب عن اهتمامات المجتمع: الرياضية، والأخبار الفنية والموضة، نعم... اكتب عن الموضة...لا تكتب في الثقافة، لا أحد يقرأ منشورات الثقافة، أفضل مجلة ثقافية في بلدك لا تطبع ألف نسخة. الكتب تتعفن على الرفوف ولا أحد يقلّب صفحاتها... أفضل كتاب في بلدك يطبعون منه ألف نسخة ولا تجد من يقرؤه... اكتب اليوم عن هذه المباراة وستجد كيف سيتابعك القراء... اكتب على صفحتك في الفيس عن المباراة، وستجد عدد المعجبين بالمئات... أفضل منشوراتك اليوم لا يتابعها مئة معجب... نحن في زمن «هشتك بشتك»، على فكرة أنت تفهم في اللغة أكثر مني، ما معنى هشتك بشتك»؟

قلت: «لا أعرف».

راح يضحك، بانت أسنانه الخلفية صدئة، ومن الأمام ثمة فجوة لأكثر من سن مفقود، وبدت تجاعيد وجهه عميقة، وبدا أنفه طويلاً ومعقوفاً إلى الأمام، قال: «اكتب مقالاً بعنوان زمن «هشتك بشتك». أقسم بالله، ابتسامة جارتنا أم يحيى، يتابعها ألف معجب على الفيس. البلد، تتغيّر».

كان المقهى الواسع يغص بالشباب: فتيات وصبيان، ومن أعمار مختلفة، لم تكن إضاءة المقهى جيدة. قال صاحب المقهى: «الكهرباء على المولّدة، شركة الكهرباء على كيفها تفصل الكهرباء، ولأن الجو ماطر يتذرعون اليوم بالرعد والبرق».

منذ أيام، والأمطار تهطل بشكل متقطّع، ودرجات الحرارة منخفضة أقل من معدلها في هذه الفترة من السنة بثلاث أو أربع درجات، كان البرد يرعش أطرافي، وارتجف قلبي... طلبت شاياً بدلاً من القهوة التي لم تأتِ، قلت: «كان عليّ ألا أحضر، البرد قاس».

ووضعت الشال حول فمي، وقلت: «برد».

قال عادل: «وأنت لم ترتدِ معطفاً ولا قبعة، عليك أن تعترف مثلي أن زمن الشباب حوّل»، ونادى على النادل: «هات الشاي بكؤوس كبيرة».

يزدحم جو المقهى بالدخان، والضجيج، قلت: «جو المقهى لا يطاق».

راح عادل يضحك: «دخان اللفائف ولا دخان قذائف الزوجة».

ثمة شباب صغار، يتحدثون بصوت عالٍ، شعرت بأصواتهم تدق طبلتي أذني بقوة.

جاء النادل بالشاي، كان الشاي فاتراً وبلون الصدأ الفاتح، أخذت رشفة، وتركت الكأس على الطاولة. قال: «يبدو أن الشاي لم يعجبك، هذا هو شاي المقاهي في هذه الأيام، الشاي مغشوش، وربما يغلون الشاي أكثر من مرة، كل شيء بات مغشوشاً... والأسعار كاوية، ألم أقل لك أنت بعيد عن الواقع».

كان عادل من عشاق كرة القدم، ويتابع المباريات المحلية والعالمية على التلفاز في بيته، وأحياناً، يتابعها هنا في هذا المقهى عندما تكون المباريات مشفّرة. صاحب المقهى خبير في فك رموز

التشفير، يقال ثمة شباب يأتون إليه في آخر الليل إلى المقهى لمشاهدة الأفلام الجنسية على القنوات المشفّرة كما فهمت من ابني يوسف: «يا أبي، ثمة مقاه تغص بالشباب بعد منتصف الليل لمتابعة المحطات الجنسية المشفّرة».

«والآن ونحن في الحرب؟!»سألته:

«في زمن الحرب، أكثر مما كان قبل الحرب. داهمت الشرطة الجنائية مقهى الوردة الزرقاء منذ مدة، يقولون: شاهدت فيه العجائب. أمرت الشرطة بإغلاقه، ولكن سرعان ما عاد المقهى إلى العمل وكأن شيئاً لم يحصل... يقولون الرجل (مخرّق) على جهات القرار».

ذهب رأسي إلى سلمى...

كانت سلمى تتابع برامج السهرات في أغلب المحطات التلفزيونية والمحطات التركية والقبرصية التي تعرض أفلاماً إباحية. سألتني مرة: «ألا تشاهد محطة «رادول» القبرصية»؟

لم أكن سمعت باسم هذه المحطة من قبل. سألتها: «ما بها»؟

«وجِّه الهوائي نحو قبرص بعد منتصف الليل، وشاهد»!

بعد منتصف الليل أبقيت أضواء الصالة في بيتنا مطفأة... وفتحت التلفاز على محطة (رادول)، رأيتها تبث أفلاماً جنسية مثيرة. استيقظت أمي، ورأتني، ارتبكت، وشعرت أنني فأر صغير يرتجف في قبضة هر. صرخت بي: «أهذا الذي أيقظك في وسط هذا الليل»؟

سألني عادل: «لست طبيعياً اليوم، هل تشاجرت مع شذا، أو مع الأولاد؟ ماذا صار بموضوع مجد»؟

«لا أعرف، رأسي ينفجر، طلب من أخيه أن نرسل له مالاً ليعود، من أين لنا المال؟! لا أدري ما العمل؟ هل أتركه يحترق هناك»؟!

ابتدأ بثّ المباراة...

راح اللاعبون يتحركون في الملعب...

كان الفريق السوري يرتدي القمصان الحمراء، والفريق الأسترالي يرتدي القمصان الصفراء، وكان صوت المذيع الخليجي يعلو وهو يعرض أسماء اللاعبين ومواقعهم على ساحة الملعب. بدا لاعبو الفريق الأسترالي أكثر سرعة... وصل بعضهم إلى منطقة المرمى السوري، وعندما التقط حارس المرمى كرة مؤكدة هدفاً

محققاً، وقف الجميع في المقهى، وارتفع صياحهم «سورية، سورية»... واهتزت طاولتنا، وسقط كأس الشاي أمامي واندلق على الطاولة وتبلل بنطالي.

التفت إليهم، لا أحد أعارني اهتماماً، وكان عادل غارقاً في مشاهدة المباراة.

عندما أدخل الأستراليون هدفاً... قام الشبان بضرب أكفهم على الطاولات بقوة. وضرب بعضهم فناجين القهوة والشاي وعلب الكولا وتدحرجت على الأرض.

جاء صاحب المقهى، وقال بصوت عال:

«سأضطر إلى إطفاء التلفاز، هذا جنون».

لم يلتفت إليه سوى شاب على الطاولة المجاورة، وقف وقال:

«إن فعلت سأكسر عنقك».

لم يرد صاحب المقهى، هزّ رأسه وعاد إلى طاولته.

في الواقع كان الحزن يتملكني، وفي الوقت نفسه، كان يتملكني غضب. وظلّ تفكيري مع شذا ومجد ويوسف وريم، ليست هذه

شذا التي أعرفها، تبدو مأزومة في نظراتها وصوتها... هي لم تمارس من قبل هذا النوع من السلوك، من قبل، كنت أهنئ نفسي بها كلما سمعت حكايات زملائي عن زوجاتهم. عادل نفسه، في كل يوم يأتيني بحكاية عن علاقته المتوترة بزوجته، علاء، لو عرفت أن الزواج حرب دائمة لا تنطفئ لما تزوجت، الزواج حرب، مهما قاتلت فيها بشجاعة وذكاء ستظل مهزوماً... ولن تعلّق لك الأوسمة منتصراً أو مهزوماً، أنت دائماً في موقع المتهم من زوجتك ومن أولادك. كلما كبر الأولاد، اتسعت دائرة اتهامهم لك بالتقصير». «علاء، لست معي، أين رأسك، يا رجل»؟

«لا أدري».

«اكتب في الرياضة، أو عن فنانة، أو عن بائعة هوى، هل تعرفت ذات يوم إلى بائعة هوى»؟

«لا».

«كيف تكتب عن النساء إذن؟... في قريتنا يطبخون البرغل، وكانت أمي تجيد طبخه، ثمة سنة قاسية مرت علينا لم نستطع فيها شراء زيت زيتون، صرنا نأكل البرغل دون زيت، وكنا نشعر أننا نأكل تبناً وليس برغلاً».

«لماذا هذه الحكاية»؟!

«لأن كتابتك عن المرأة والحياة تحتاج إلى زيت التجربة المباشرة، اعشق، لا، لا تعشق، العشق في الكبر ذل، لا مال ولا فعل، اترك حالك على حالك. اكتب عن الحب وعن الشباب والتشرد، اكتب عن النساء اللواتي يشترين الخبز بأجسادهن، نعم هناك من تبيع جسدها لتأكل، وهناك عاهرات، أنت لا تعرف ما يجري، الحرب فعلت أشياء غريبة، في الليل ثمة نساء على الأرصفة يتصيدين الرجال مقابل ألف ليرة، هل التقيت بواحدة منهن؟! أعرف أنك لم تلتق ...اشرب الشاي، اشرب... المقهى أفضل مكان للهروب من وجع الحياة وهمومها، أغلب هؤلاء الذين تراهم في المقاهي هاربون من وجع الحياة ولا يعلنون عن ذلك. علاء... زوجتك شذا من الملائكة، زوجتي معمل لضخ الاستفزاز على مدار الليل والنهار».

تخيلت وجه شذا الحزين. عاتبت نفسي، كان عليّ أن أحتضنها، وأعلن لها أنني أحبها اليوم كما كنت أحبها من قبل وأكثر بألف مرة. صار بيننا تاريخ وأولاد وذكريات وأحلام مشتركة. وإنها باتت الأهم في حياتي، لماذا ارتبكت أمام حزنها وأمام سؤالها؟

كنت غبياً. عندما أصل إلى البيت سأحتضنها، منذ زمن طويل لم أحتضنها. كانت ترفض، عندما كنت أغادر صباحاً إلى عملي، أو عندما أعود منه، كنت أحاول تقبيلها كما يفعل كثيرون مع زوجاتهم تقول لي: «لا أحب هذه الأمور».

اشتد الصياح في المقهى مع هجمات الفريقين... وترافق بالضرب على الطاولات، خشيت على الطاولة التي أجلس حولها من ضربات شاب بدين يجلس إلى جواري مباشرة، قبضته قوية كمطرقة، وصوته خشن كصوت ثور. راحت الطاولة تهتز تحت قبضته، وهو ينهض ويجلس مع حركة المباراة.

وقفت: «عادل، أنا سأغادر، لا أستطيع متابعة المباراة».

جاءتني أصوات احتجاج من الوراء:

«اجلس، يا عم لنرى».

التفت إليهم، وجوههم متسمّرة على وجهي بغضب، قال عادل:

«انتبه، هم غاضبون وعلى مشارف الانفجار، اجلس يا رجل»!

«سأغادر».

جاءني صوت أحدهم: «يبدو أن كلامنا لم يعجبك»؟

أدركت أنني أمام مشكلة، أمسك عادل بيدي وشدني:

«اجلس، الشباب هائجون كالثيران في حلبات مدريد، لا تشتبك معهم».

يصير رأسي غابة من الضجيج والقلق والأسئلة، الوجوه... وجه شذا، وجوه أولادي، مجد، عروبة ابنة زهير المكتبي، ضحكت: «زهير مكتبي يسمي ابنته (عروبة). هؤلاء الفاسدون يبرعون في ارتداء جلود مستعارة، ما علاقة زهير مكتبي بالعروبة؟!». تذكرت أحد رجال الأحزاب الدينية المتطرفة عندما أطلق على اسم ابنته ثورة، سألوه: «كيف أسميت ابنتك ثورة، وأنت تحارب الثورة؟ قال: «هم يفهمونها ولاء، وأنا أفهمها عداء»... قال زهير مكتبي لمجد: «لا تكن كأبيك من جماعة العقول الثورية». لم يردّ مجد. قلت له: «طوال عمري وأنا أحاول أن أظل نقياً لأكون مصدر فخر لكم أمام الناس، فلماذا لم ترد عليه»؟

سألني: «أأنت أم زهير مكتبي، من أكثر أهمية في الوطن؟».

جاءني سؤال مجد كصفعة على وجهي.

سألته: «من في رأيك أهم»؟

قال: «هو، زهير رجل مجتمع، وتفتح أمامه أبواب المسؤولين ورجال الأعمال، وهو اليوم على أبواب موقع مهم...، وأنت يبح صوتك وأنت تتحدث عن الوطن، لا أحد مستعد لإعطائك دقيقة من وقته، كل ما تكتبه عن الوطن لا يعنيهم».

خرجت من المقهى وصوت عادل يلحق بي «لا تذهب».

لفحني هواء بارد، وكانت الشوارع معتمة، بدت حركة السير في الشارع بطيئة، ولفحني هواء بارد راح يتسلل إلى رئتي، وشعرت بتعب، وأنني بحاجة إلى مزيد من الهواء، أخذت نفساً طويلاً، اندفع الهواء بارداً إلى رئتي، تذكرت حاجتي إلى شالي الصوفي لأغطي به أنفي وفمي جلست في مدخل محل تجاري مغلق ووضعت شالي حول عنقي وعلى فمي وأنفي، وشتمت قسوة الحياة والفقر، أول مرة أشعر بهذا الشعور المأساوي .

ماذا لو بكيت في هذا الليل المعتم ؟!

انسرب إليّ برد الرصيف، وارتجف جسدي، قلت: «عليّ ألا ألوم أولادي عندما ينزعجون من قسوة حياتي، ولدت وأنا أعيش

قسوة الحياة، ومازلت، كان راتب أبي، بصعوبة يكفينا إلى آخر الشهر.

وبصعوبة اشترى بيتاً على أطراف مدينتنا الساحلية، استدان بعض المال من عمتي فاطمة، في كل أيلول، شهر افتتاح المدارس والجامعة، نحتاج إلى مزيد من المال، تشتعل حرب كلامية بين أبي وأمي ولم يأت عيد إلا اشتعل الشجار بينهما، يقول لها:

«الشهادة لله ليس باستطاعتي أن أقدم سوى راتبي».

وتردّ أمي بعصبية: «مثلك يجب ألا يتزوج ولا ينجب أولاداً».

يرد بعصبية: «ليس أمامي سوى أن أبيع مدافع الكتيبة؟ أتريدينني أن أبيعها»؟

ويخرج غاضباً، ويتجه إلى الشاطئ، كنت أتبعه، أراه من بعيد يجلس على أحد المقاعد الحجرية التي وضعتها البلدية على طول الممشى البحري.. يتأمل الموج وهو ينسكب على الشاطئ الصخري، ويتناثر رذاذه على وجه أبي، يتلمس أبي ملوحة الرذاذ على شفتيه بطرف لسانه. ثمة نوارس تحلق فوق الماء على امتداد الشاطئ من ميناء الفيض إلى ميناء الرميلة... ويختتم مشواره في ميناء زوارق

الصيد، يلتقي الصيادين، ويشكون له قسوة حياتهم، ويتفقدهم بالاسم، يخبرونه أن بعض الصيادين أخذهم النوّ ولم يعودوا.

يقول لهم: «ليتني كنت في موقع القادر على مساعدتكم لبناء ميناء صيد سياحي لخدمة السياحة البحرية».

يقول جابر ريّس الصيادين: «كلهم يقولون، وعندما يصعدون إلى أعلى، نُرمى في سلة النسيان».

يضحك أبي: «معك حق، مشتاق إلى فنجان قهوة من يدك».

«لك ما تشاء».

مرة، اكتشف أبي وجودي بين شجيرات الحديقة الصغيرة التي تتوسط البيوت المطلّة على البحر ناداني: «علاء، تعال»!

جلست إلى جواره على المقعد الحجري، وسألته:

«أبي، لماذا لا تتوقف أمي عن إزعاجك»؟

مرّر أصابعه على رأسي، وتنهد، وظلّ صامتاً، وهو يتأمل باخرة تبحر عند خط الأفق، وثمة زوارق صغيرة تقترب من الشاطئ، أعدت السؤال، «لماذا لا تتوقف أمي عن إزعاجك»؟ نظر في وجهي،

وحاول أن يبتسم، بدت ابتسامته كوردة ذابلة: «علاء، أمك طيبة، لكنها عصبية، وعلينا تحمّلها».

هل كان أبي يحبها إلى درجة تجعله يتجاهل ما تفعله معه؟!

كم تمنيت في نفسي لو يمسك بها من شعرها، ويشده بقوة حتى يسقطها منكبّة على وجهها... مرة، اندفع نحوها غاضباً، اعتقدت أنه سينهال عليها ضرباً، صارت قبضته فوق رأسها... وفجأة... اهتزت قبضته، وتوقفت في الهواء، قالت له بتحدّ وعيناها مفتوحتان بقوة:

«اضرب، إن كنت رجلاً».

تراخت يده، وتضاءلت نبرة صوته.

كان أبي طويل القامة، على مشارف الخمسين من عمره... حنطي اللون، يميل إلى النحافة، له خصر رقيق، عيناه عسليتان، وشعره أجعد راح الشيب يغزوه من كل الجهات، وله شاربان خفيفان، غزاهما الشيب أيضاً. عاش طفولة قاسية. مات والده وهو في المرحلة الابتدائية، ولحقت به أمه وهو لم يحصل بعد على الإعدادية، وتكفلت عمتي فاطمة بالعناية به إلى أن حصل على

الثانوية، لم يكن قادراً على الالتحاق بالجامعة لدراسة الهندسة، فاتجه إلى الكلية العسكرية.

يوم غادر أبي حياته العسكرية، عاد إلى مدينتنا بسيارة أجرة.

قالت له أمي شامتة به: «أنت أوصلت نفسك وأوصلتنا إلى هذه النهاية السيئة».

مات أبي بعد تسريحه من الجيش بتسعة أشهر.

يوم وفاته... وقفت أمي فوق جثمانه تنظر في وجهه.

لا أدري كيف خطر لي أن أسأل نفسي يومذاك: «هل أحبت أمي هذا الرجل يوماً»؟

بكت وهي تتأمل وجهه الصامت في تابوت خشبي فقير، أحضرته أنا من جمعية خيرية، يا ترى، أتبكي على أبي أم أنها تبكي على عمرها الذي أمضته معه؟

جاء خالي نسيم، ولم يقل لنا كلمة عزاء، أمسك بيد أمي وابتعد بها، تابعت نزول جثمان أبي في القبر... راحوا يهيلون على القبر التراب الطري، غرست عمتي أغصان الريحان في التراب ونام رأسها على

القبر باكية... أشعر إلى الآن أن أمي هزمت أبي، وهزمته الحياة، وهزمه رؤساؤه... وظلّ صابراً يخفي انهزامه.

تقتحمني موجة حزن وتجرفني إلى شذا، قبل أن أغادر البيت، اقتربت من شذا، وقلت لها:

«شذا، أنا أحبك، والله أحبك، ما الذي يحزنك؟»، ظلت تنظر إليّ بصمت ...

تربكني نظراتها، تشعرني أنني أمام أسئلة أبعد بكثير من سؤالها إن كنت أحبها.

تركت رأسي على جدار الباب، راح رأسي يهتز ثقيلاً كعمود على مشارف السقوط، شاهدتني شذا أتمايل وعلى وشك السقوط، اعتقدت أنها ستنهض وتمسك بي، أو أنها ستسألني ما بك وتكسر حالة الصمت بيننا؟ لم تتحرك، أسندت رأسي إلى الجدار، أزعجني موقفها، أيعقل في لحظة واحدة أن يجف نسغ حياة مشتركة على الحلو والمر خلال ثلاثين عاماً؟

فتحت عيني، ثمة رجل كبير في السن يقف أمامي، «ما بك يا بني»؟

توقعت أنني كنت في إغماءة، وجدت رأسي على باب المتجر، وكتفي على حافة جدار الباب، نهضت وقلت للرجل:

«أنا بخير».

قال: «هل تريد الذهاب إلى المشفى»؟

قلت: «لا، أنا بخير».

هزّني صوت نسائي: «ما بك، هل تشكو من شيء»؟

بدت المرأة على ضوء بقعة ضوئية باهتة هاربة من نافذة في الطابق الثاني طويلة القامة، ذات شعر طويل مرمي على كتفيها، ترتدي معطفاً أسود، وذات وجه ممتلئ، لم أحب رائحة عطرها، كان حاداً، ينفذ إلى داخل رئتي بقوة، قلت: «لا، أنا بخير، يا سيدتي».

قالت: «لا تبدو لي رجلاً مشرداً، كأنني رأيتك من قبل».

كان البرد يتسلل إلى مفاصلي، خمّنت من صوتها، ومن تكوينها الجسدي أنها على مشارف الأربعين من عمرها. تشبه ريتا ابنة منذر الفخراني زميلتي في الجامعة. منذ أيام قالت لي ماجدة على الماسنجر: «ريتا هنا في دمشق، لأول مرة منذ بدأت الحرب».

دققت في ملامح وجهها المصبوغ بمساحيق التجميل تحت وهج البقعة الضوئية الهاربة من النافذة في البناء المجاور، وعلى ضوء سيارة تعبر الشارع. لم تكن ريتا، أغلب النساء اليوم بتن يشبهن بعضهنَّ بعضاً، ثمة علامات مسجَّلة لكل ملمح كما يقول عادل... أنف نانسي عجرم، وشفتا هيفاء وهبي، وعينا أليسا»...

ثمة رجال ونساء كانوا يمرون بخطوات سريعة، أمسكت بيدي «تعال نبتعد قليلاً عن دائرة الضوء».

مشيت معها متعباً، ولدي شعور بالإحباط، خمنت أنني أمام فتاة هوى.

سألتني: «ماذا تفعل هنا، وإلى أين»؟!

قلت: «أبحث عن نفسي».

ضحكت «أنت هارب من أمر ما»؟!

كان المساء يتقدم، وعتمة الجو الشتوي كثيفة، والبرد يبري الأصابع، قالت: «كأني رأيتك من قبل؟ هل تعمل في التلفاز، أو في السياسة»؟

«لا، ولا في أي منهما».

«متأكدة أني رأيتك».

أسندت جسدي إلى الحائط، كانت رائحة عطرها تنفذ إلى رئتي بقوة، خطر لي أن أغني أغنية كانت تغنيها عمتي، لم أعد أذكر كلمات الأغنية، أصابتني حالة غريبة من الشعور بالأسى، تذكرت مجداً هو الآن مشرّد في القاهرة ومطلوب هنا للسجن، لماذا يعبث هؤلاء الكلاب بمصير الفقراء، ولماذا يقع الفقراء في شباكهم.

«وضعت المرأة يدها على كتفي، ومالت نحوي، ظننت أنها ستقبلني، ارتبكت، وحاولت الابتعاد عنها وبقيت صامتاً ورأسي مع مجد ومع يوسف وريم وشذا، غمرت وجهي بكفيّ، سألتني المرأة أنت تبكي؟! قلت: «لا» وأبعدت كفيّ عن وجهي، كنت بالفعل أبكي، لكن العتمة أخفت دمعة راحت تسبح على وجهي نحو عنقي، أدرت لها ظهري، ومسحت دمعتي.

أمسكت بي من كتفي من جهة الخلفي، وأدارتني نحوها «أنت تهرب مني»؟!..

سقطت قذيفة قريبة بين وزارة السياحة، وفندق سميراميس.

التحمت بي، وصار وجهها على وجهي تماماً: «أنا خائفة».

لا أعرف كيف احتضنتها.

هل كنت فزعاً، أم أنني رغبت في احتضانها؟ لا أدري.

صارت شفتاها على مشارف شفتي، وفاحت رائحة عطرها، سقطت قذيفة جديدة في اتجاه ساحة المرجة، كان جسدها ليناً، وساخناً، وشعرت بانجذاب إليها، مشت شفتاها على عنقي ولم تقبلني.

قالت: «رائحتك طيبة، هل تضع عطراً»؟

«لا».

ارتفعت أبواق سيارات إسعاف، وأضاءت أضواؤها الشارع، ورأيت وجهها واضحاً على ضوء سيارة إسعاف عابرة، نظر السائق نحونا، وجاء رجال شرطة، قالت مفزوعة «علينا التحرك» تأبطت ذراعي، ومشت إلى جانبي تحدثني بكلام متقطع لم أفهمه.

«... تعال ندخل المقهى المجاور».

«لا أملك مالاً».

«تعال».

بدا المقهى مضاء بأنوار خافتة، ثمة رجال ونساء يخرجون بخطوات سريعة من المطعم اصطدمت بي امرأة، أمسكت بها خوفاً من سقوطها على وجهها وهي تخرج.

ثمة رجلٌ وامرأة لم يغادرا المطعم، جلسنا متقابلين في زاوية بعيدة عن الباب، كان وجه المرأة التي تجلس قبالتي واضحاً، عيناها خضراوان وشفتاها مكتنزتان، عليهما قليل من أحمر الشفاه، وترتدي معطفاً أنيقاً قامت بخلعه ووضعته على كرسي قريب منها، كانت **(**بلوزتها**)** رمادية، تظهر صدرها نافراً إلى الأمام، وبدا عنقها ناعماً وطويلاً وأبيض .

«هل أنت متزوج»؟

«نعم».

«هل تحب زوجتك»؟

تذكرت سؤال شذا**:** «أما زلت تحبني»؟

قلت**:** «لم أعد أعرف إن كنت أحبها أو أنها تحبني، هذا الأمر نسيناه منذ زمن».

نعيش معاً من أجل أولادنا، هل هذا هو الحب أو موت له، لا أدري؟**!!**

راحت تضحك، وأمسكت بيدي فوق الطاولة «ارتحت لك، وجهك جميل، تذكرت أين رأيتك الآن، في برنامج أوراق مع حسام عز الدين، ألست أنت»؟!

«أنا».

نهضت عن كرسيها، وجلست إلى جواري: «بالتأكيد كنت جميلاً في شبابك».

تشابكت نظراتها على وجهي كشبكة عنكبوت... تذكرت نصاً قرأته في كتاب لم أعد أذكر عنوانه ولا اسم كاتبه: «قد يتعذر على الرجل أن يرى جسد المرأة التي يعجب بها في لحظة رغبة... لأن كل نقطة في جسدها تصبح حاجة، وتثير فيه أمراً»...

انطفأ محرك الكهرباء في المطعم، وسادت عتمة، مشت أصابعها على تعاريج جسدي.أمسكت بأصابعها وأبعدتها، ضحكت «لا تهرب مني، فأنا لست رخيصة كما تتصور، القدر جمعنا في هذه الليلة».

«قلت: أنا متزوج».

عاد محرك الكهرباء إلى العمل، وأضيء المكان.

أخرجت لفافة تبغ، أشعلتها وقدمتها لي: «دخن».

أخذت نفساً قصيراً «يكفي».

قالت: «اسحب نفساً طويلاً».

يمشي دخان اللفافة في رأسي... يصير رأسي ضخماً وخفيفاً كحبة قرع كبيرة.

«هل ثمة امرأة في حياتك الآن»؟

«ولماذا الآن»؟

«لأن قلب الرجل دائم الترحال».

رحت أضحك، وتمايل رأسي وأنا أداعب كأساً من الماء بين أصابعي.

قالت للنادل: «أحضر كأسين من النبيذ».

قلت: «لا أشرب».

«ستشرب».

جاء النادل بالنبيذ، أمسكت بكأس من النبيذ وقدمته لي «اشرب».

أمسكت بالكأس، وأخذت منه رشفة، كان طعم النبيذ لذيذاً، ابتلعت باقي النبيذ في كأسي دفعة واحدة... ثمة خدر خفيف راح

يمشي في رأسي ويمر في جسدي كله «قلت: أنا في الواقع لا أشرب، لكنني أحببت النبيذ».

نادت على النادل «هات له كأساً أخرى. لا، هات زجاجة كاملة».

قلت: «لا، أخاف أن أثمل».

ضحكت بصوت عال «اشرب، ما المشكلة؟ في هذه الليلة، كل منا يبحث فيها عن نفسه».

والتصق فخذها بفخذي، شعرت بدفء. سألتني:

«هل مارست الجنس مع امرأة غير زوجتك»؟

أذكر... كان اليوم الأخير من كانون الأول، بدا النادي واسعاً جداً كمدينة من الضوء، ثمة رجال ونساء أنيقون يدخلون ويتجهون إلى الطاولات الأنيقة المغطاة بأغطية مخملية خضراء اللون. حول طاولة قريبة من مسرح صغير يعلو قليلاً على أرضية الصالة، رأيت والد ريتا وبرفقته امرأة ترتدي فستاناً يظهر قسماً واسعاً من ظهرها، ومن الأمام ينفتح الفستان نحو الأسفل كسهم بين الثديين، في الخمسين من عمرها، بدينة، تلوّن شعرها بالأشقر

الفاتح كنجمات السينما، يبدو وجهها تحت مساحيق التجميل ثقيلاً كلوحة تشكيلة تتداخل فيها الألوان، قالت ريتا «هذه أمي»، ارتبكت وأنا أصافحها، نفذ عطرها إلى رئتي حاراً وهي تقبلني: «ريتا، صديقك لطيف».

صبت لي ريتا كأساً من نبيذ أحمر، وصبت لها كأساً. شربت كأسي الأول في رشفات متلاحقة، وجاءت فرقة موسيقية غربية وراقصات شبه عاريات، قال لي والد ريتا «في صحتك» ورفع كأسه، رفعت كأسي ودلقته في فمي، راح رأسي يدور وينفصل تدريجياً عن جسدي، وأخذت الكأس الثالثة، قال والد ريتا «لا تشرب أكثر - السهرة في أولها» أمسكت بي ريتا ودعتني إلى الرقص، راح جسدي يتمايل معها، ومشت أصابع ريتا على جسدي كله، وخشيت على نفسي من السقوط، كانت ريتا تضحك، ومشت شفتاها على عنقي «الليلة سنكون معاً، ما رأيك أن نغادر إلى بيتنا ونتابع سهرتنا هناك، وأبي وأمي هنا»؟!

قلت: «سأخرج قليلاً إلى الحمام. كنت بالفعل أريد الخروج إلى الحمام للتبول، وجدت نفسي خارج النادي دون أن أدري. أمسك الهواء برأسي وألقاه في المقعد الخلفي لسيارة أجرة متجهة

إلى المدينة الجامعية، في غرفتي، انفصل رأسي عني تماماً، وتقيأ بطني على السرير وسال القيء على أرضية الغرفة وشعرت أنني في مستنقع من القيء والعفونة الحامضية.

جاءني صوت المرأة: «اشرب... أين ذهب رأسك»؟

دلقت الكأس الثالثة في فمي.

نام رأسها على كتفي، شعرت بجسدي ينز خمراً حامضي الرائحة... تذكرت شذا، وثلاثين عاماً عشناها معاً، وشعرت بجسدي كله ينضغط، وجه شذا في وجهي، يكبر وجهها، وعيناها تكبران، ثمة تجاعيد حول عينيها تتموجان بالدموع، سمعت صوت تنهدها «علاء»، تعتصر رأسي ريح باردة في وسيلة مواصلات عابرة، أغلقت زجاج النافذة، وتركت رأسي عليها... غاب صوت شذا في ضجيج وسيلة المواصلات والركاب، وأصوات قذائف تنفجر وتحدث فجوات ضوئية واسعة في هذه العتمة.

توقفت وسيلة المواصلات، ورأيت جندياً يحمل بندقية يقف قرب نافذة السائق، فتح الجندي رأسي: «أين بطاقتك الشخصية»؟

قلت: «ليست معي، هي في البيت».

«انزل، ستأتي معي إلى الضابط».

كانت أصوات الرصاص قريبة جداً، ورأيت أضواء الطلقات والقذائف ترسم أقواساً ضوئية، وتتوهج عندما تسقط على الأرض، كان ثمة حرائق في محيط الكراج وفي بناء قريب، كانت النار تبدو شديدة الإضاءة. في هذا الجو المعتم، رأيت جنوداً كثيرين يحملون بنادقهم، انتشروا سريعاً في المكان وكأنهم يستعدون للقتال.

مشيت مع الجندي، فتح باباً حديدياً، ومشينا في ممر ضيق... ثمة رجل يجلس خلف طاولة صغيرة. قلت: «أنا علاء يوسف غانم»، ألم تقرأ ما أكتبه في الصحف»؟

كانت قدماي متعبتين، وشعرت بزوغان في رأسي. جاءني صوته كالصراخ:

«ما الذي جاء بك إلى هنا»؟

سقطت على الأرض مع سقوط قذيفة قريبة، قال الضابط: «انهض»...

توالى سقوط القذائف والرصاص، سقط جندي على الحاجز، وتكاثف سقوط الرصاص، أمسك بي عسكري من كتفي، ورفعني: «هل أنت منهم»؟

أقسمت بروح أبي أنني مواطن صالح وأسكن في حي المزة ٨٦ وأعمل في وزارة الاقتصاد، وزوجتي جولانية وتعمل في هيئة الاتصالات، وابني طبيب في مشفى المجتهد، هو الآن خارج المشفى.

«ما الذي جاء بك إلى هنا»؟

«ركبت وسيلة مواصلات، ورأيت نفسي هنا».

سقطت قذيفة على بعد أمتار من الحاجز، ظل رجال الحاجز متماسكين، قال لهم رجل يبدو أنه المسؤول في الموقع: «احذروا، هم يستهدفون الحاجز».

وقال لي: «اصعد إلى السيارة من الخلف. وغادر، المكان خطر.

اكتشفت في السيارة جثة الجندي الذي سقط قبل لحظات بقذيفة، كان وجهي فوق رأسه. رحت أفتح عيني بقوة لعلي أرى ملامح وجهه، العتمة كثيفة، تلمست وجهه، صارت أصابعي مبللة بالدم، شعرت بالخوف، ودارت في رأسي أفكار كثيرة سوداء، بكيت بصمت، تذكرت مجداً، تخيلته يبكي في أحد شوارع القاهرة والناس يمرون به ولا يلتفتون إليه، ورأيت خالي نسيم وابنته بتول وزهير المكتبي، جميعهم يمرون به ويضحكون، يناديهم، يضحكون منه.

اكتشفت أننا ندخل ساحة الأمويين، عرفت ذلك من بناء مبنى التلفزيون، كان مضاءً، الواجهات الزجاجية الزرقاء بدت كوجه شبح كبير، تذكرت حسام، وبرنامجه «أوراق»، وعلى ضوء الأعمدة الضوئية في ساحة الأمويين، رأيت وجه الجندي القتيل، كان مضرجاً بالدم، وبدت عيناه مفتوحتين، راحتا تكبران وتتسعان، أصابني خوف، ناديت على السائق:

«أريد النزول، أوقف السيارة»، لم أنتظر توقف السيارة تماماً، قفزت منها، وركضت، ثمة رجل ينام على الرصيف، سألني: «هل جاء المسلحون؟».

اتجهت في شارع قصير وواسع، ثمة ضوء ينوس من نافذة في الطابق الرابع، تذكرت أن شذا قبل أن تنام تتأكد أن الجميع في أسرّتهم، فتطفئ مصابيح المنزل، وتترك نواسة وحيدة خضراء ينوس ضوءها في الممر الذي يفضي إلى الحمام والمطبخ، وتغلق الباب الخارجي بالمفتاح، وتضعه في غرفتنا... وتقول: «هكذا أطمأن أن لا أحد منهم سيغادر البيت ليلاً».

ظل غياب يوسف يقلقها، يذهب في الصباح إلى عمله في مؤسسته ولا يعود إلى فجر اليوم التالي وعندما تسأله شذا «أين كنت»؟! يظهر الغضب في وجهه: «لم أعد طفلاً».

ينفجر غضبها في وجهي: «فقدت سيطرت على الجميع، أنت السبب، أنت وراء كل مصائبي، سأموت ذات يوم بالذبحة القلبية بسببك وبسبب أولادك».

وتدخل إلى غرفتها وتغلق الباب وراءها.

في أول مدخل الـ ٨٦ من جهة «الشيخ سعد» استوقفني حاجز أمني، سألني رجل أمن عن بطاقتي الشخصية، قلت: «نسيت حملها».

جاء آخر، وقال لزميله: «أعرفه، هذا جار خالتي أم عساف».

خطر في بالي أن أزور صديقي حسام في البيت لنشرب القهوة ونتحدث، سمعت أذان الفجر يرتفع من مئذنة قريبة، تابعت إلى بيتنا، فتحت ريم، سألتها: «ألم تنامي بعد»؟

قالت: «قلقنا عليك. ليس من عادتك السهر. قلنا لك ألف مرة احمل هاتفاً، بقيت ترفض فكرة الهاتف من أساسها... أمي

خافت عليك. اعتقدنا أنك خطفت أو قتلت. هذه الليلة على الحي من أشد الليالي».

قلت: «أنا متعب».

كنت على يقين أن شذا لم تكن نائمة.

أعرف ذلك من صوت تنهدها. بدت ككتلة من العتمة وهي تدير ظهرها.

ارتديت بيجامة نومي وتمددت إلى جوارها في السرير. ظلت مسافة قليلة تفصلنا، كان اللحاف بارداً جداً، أمسكت بالبطانية واللحاف، وسحبتهما إليّ قليلاً، حاولت أن أغفو. لم أستطع، ظل البرد يمسك بأمعائي.

اقتربت منها قليلاً، جسدها دافئ، لكنها سرعان ما أبعدت جسدها عني، وظلت تدير لي ظهرها. كنت أشعر بفراغ عاطفي، وأنني بحاجة إلى امرأة تمنحني الدفء... تمنيت لو أنني أمضيت ليلتي مع تلك المرأة، كنت جباناً، نعم كنت جباناً ولم أكن رجلاً، هي ستقول عني ذلك، لو التقيتها ثانية ستنفجر في وجهي كما فعلت ريتا عندما هربت منها في احتفال ليلة رأس السنة، وعندما

التقينا في الجامعة قالت «كنت أحسبك رجلاً، أنت فاقد لرجولتك، وأنت لا شيء، هل تفهم ماذا أعني»؟!

اشتهيت تدخين لفافة تبغ، لم أكن مدخناً، مرات قليلة مارست فيها التدخين أنا وسلمى عندما كنا نلتقي، كانت تحضر علبة الكبريت وبعضاً من سجائر أبيها الرخيصة، وندخن.

لماذا تراودني الآن تلك الأفكار؟

قناعة شذا أنني بعيد عن التفكير بامرأة أخرى، أظنها لا تعرف قسوة هذه اللحظات، وحجم الفراغ العاطفي الذي يسكنني. يوم كنت أمازحها: «سأفكر بامرأة أخرى»، كانت تضحك: «علاء، أعرف أن أجمل النساء لن تثيرك».

خطر لي أن أبحث عن بطانية أضيفها إلى أغطيتي، يتوغل البرد في مفاصلي، من أول الشتاء وزّعت شذا البطانيات على أسرّة الأولاد، وتركت لنا واحدة نضعها تحت اللحاف.

قلت: «كبرنا، وبات البرد يخترق أجسادنا».

«الأولاد أهم».

ذهبت إلى المطبخ، وأعددت إبريقاً من الشاي، عندما عدت إلى غرفتي، كان التيار الكهربائي قد انقطع، تعثرت بطرف السرير، وسقط كأس الشاي على الأرض، وتبعثر زجاج الكأس أجزاء صغيرة على أرضية الغرفة.

جاءني صوت شذا: «انتبه من الزجاج».

قلت: «وهل يهمك ذلك»؟

جاءت ريم مفزوعة، قلت: «انتبهي من الزجاج المكسور المتناثر على الأرض».

قامت ريم بجمع الزجاج على ضوء مصباح الكاز. وسمعت أم عساف تقول بصوت عالٍ على هاتفها الخلوي: «عساف، عد إلى البيت».

ارتفع الضجيج في الشارع، ونزل سكان الحي في هذا الجو البارد إلى الشوارع، كان النهار يطلع، وظلّ ضجيج الشارع قوياً، وثمة هواء بارد يأتي من النافذة، وزعيق صافرات سيارات الإطفاء والإسعاف، قلت:

«المشهد مروع، كتل النار ترتفع».

ظلت شذا ممددة على سريرها، ولم تلتفت إليّ .

عاد التيار الكهربائي، فتحت جهاز الحاسوب، منذ البارحة لم أفتح صفحتي. رأيت على الخاص رسالة من«عشق شام» تقول فيها: «البارحة انتهيت من قراءة روايتك» «على ضفاف دمشق» اعتقدت في البداية أنها رواية من الذاكرة، رحت أبحث في تفاصيل الرواية، لم أجد ذكراً لي، نساء الرواية عابرات، إلى هذه الدرجة استولت تلك الجولانية على شعورك بالمرأة؟... أما زلت تحبها»؟!

لم أكمل قراءة الرسالة، التفت إلى شذا، ما تزال تدير ظهرها، هل قرأت رسالة عشق في غيابي، هي بالتأكيد تقرأ الرسائل التي تصلني، ربما تلك الرسائل وراء انزعاجها!

أغلقت الحاسوب.

من محل أبي منصور الفوال تعلو أغنيات فيروزية، في كل صباح يصدح صوت فيروز من محل «أبي منصور».

وتقول شذا: «عيب على هذا الرجل، في كل مكان من الحي بقعة دم، ليحترم على الأقل هذا الدم».

قلت: له مرة: «يا أبا منصور لا ترفع صوت المذياع. في الحي شهداء وجرحى وبيوت مهدّمة»...

قال: «أنا أقتل الحزن بالأغاني».

«من أين جئت بهذه الفلسفة، يا أبا منصور»؟

«هل المثقفون وحدهم فلاسفة»؟!

نظرت في ساعتي، كانت الساعة تشارف السابعة صباحاً، توقف ضجيج الشارع، وصمتت أبواق سيارات الإسعاف.

قالت ريم: «أبي، تحدث إلى أمي، واكسر هذا الجفاء بينكما».

لم تعودا صغيرين، نحن لا نستطيع رؤيتكما في هذا الوضع.

قلت: «حاولت، لا فائدة».

ذهبت إلى المطبخ لأعد شيئاً آكله، منذ عصر البارحة لم أتناول شيئاً، بدا لي المطبخ أول مرة صغيراً، وبدت رفوفه الرخامية مزدحمة بالطناجر والصحون، وتحت المجلى ثمة غسالة كهربائية من طراز قديم، وإلى جوارها في الزاوية فرن غاز أصابه الصدأ، بدا قديماً ومتعباً، كل شيء في المطبخ يذكرني

بشذا، فناجين القهوة والشاي والصحون، أحد الرفوف يضم كل تلك الأواني التي اشتريناها يوم زواجنا، كانت شذا تسمي هذا الرف «متحف زواجنا».

وعندما قلت لها: «هذا الاسم لم يعجبني، لا يبدو عصرياً. قالت: فكّر لنا باسم آخر».

مرت السنوات ولم أجد اسماً آخر لهذا الرّف، وهي لم تذكرني بموضوع التسمية، ربما عدَّت موقفي قبولاً بالاسم. يوم اخترنا المطبخ في مكانه في البيت كان ذلك من اختيار شذا من أصل ثلاث غرف صغيرة هي البيت كله، قالت: «من هنا أستطيع أن أطل على الزقاق الضيق، ومساحة الرؤيا تتجه بي نحو الغرب. علاء، جهة الغرب تذكرني بمجدل شمس وبأبي وأمي وأهلي».

قالت ريم: «أبي عد إلى غرفتك وستصلك القهوة، هل أحسب حساب أمي»؟

«لا أعرف، صبي القهوة بفناجين أمك».

«هي لا تسمح».

عدت إلى غرفتي، كان يشغلني أمر «عشق شام»، منذ فتحت صفحتي وعشق تلاحقني برسائلها وبأسماء عديدة، كلما حذفت اسماً جاءت باسم آخر. أحببت هذه اللعبة، ويبدو أن عشق أحبتها، تساءلت، «لماذا لا نلتقي، حياتي باردة مع شذا».

سألتني ريم وهي تضع لي فنجان قهوتي على طاولة صغيرة في الصالون:

«أبي هل تعثرت بك واحدة على الفيس وغازلتك»؟

«كثيرات».

«ويعرفنك»؟

«لا، لو عرفنني لهربن مني».

«بابا، هل يمكنك أن توقظ أمي لتشرب قهوتها معنا»؟

«لا».

من النافذة... رحت أرقب المدينة...

ينبئ الجو باستمرار البرد.

قال يوسف: «أمي لم تغادر غرفتها، ولم تتناول طعاماً، وأنت السبب».

وعلى الرغم من أن يوسف يظهر تعاطفه معي، لكنه في هذه المرة، بدا غاضباً وجريئاً في اتهامه لي: «أبي... كيف عاشت أمي معك كل هذه السنوات»!

ظلت شذا تحتضن رأسها بين كفيها على الوسادة، خطر لي أن أحدثها... ترددت. لا أستطيع أن أخمّن كيف ستكون ردة فعلها.

نهضت إلى البهو. الأريكة محطمة منذ مباراة كرة القدم، جلست على كرسي من الخيزران حول طاولة (فرميكا) صغيرة، أذكر يوم تزوجت من شذا أني اشتريت هذه الأريكة ونصف دزينة من كراسي الخيزران وطاولة (فرميكا)، ودلّة قهوة مصنوعة من «الجينكو» تعدّ فيها شذا قهوة الصباح... إنها ذكرى اليوم الأول لنا معاً، والقهوة الأولى لنا معاً... وشذا هي من اختارت دلّة القهوة من الجينكو الأزرق، واختارت الفناجين وأكواب الشاي من الخزف الصيني المزين برسوم أنيقة. ما تزال على حالها سليمة، وتحرص على تنظيفها بنفسها، ترى فيها كنزها التاريخي، وتوصي ريم:

«اغسلي أي شيء ما عدا فناجين الشاي والقهوة».

لم تستعمل شذا تلك الفناجين إلا في مناسبات خاصة كعيد زواجنا، أو في عيد ميلاد أي منا، أو في مناسبات نجاح أحد الأولاد، وضعتها شذا في خزانة المطبخ ذات الواجهة الزجاجية، يوم أمسكت بريم تشرب القهوة بفنجان منها، غضبت، ودلقت القهوة في المغسلة، وأنذرت ريم بألا تعود إلى ذلك مرة أخرى.

قالت ريم: «أبي... أعددت لك طعام الإفطار، تأكل هنا أم في المطبخ»؟

«هنا في الصالون».

رحت أتناول طعامي: «زيتون أخضر، وقطعة من جبن، وكأس من الشاي».

سألتني ريم: «هل أوقظ أمي لتأكل معنا»؟

قلت: «جربي».

منذ ثلاثين عاماً وشذا تنادي عليّ في كل صباح: «علاء، تعال، تناول طعامك، ضع في فنجان الشاي قليلاً من السكر، كثرة السكر لا تنفعك»، ونحن نتناول طعام الإفطار تقصّ عليّ حلماً رأته في ليلتها، أو تحكي عن الأولاد. في الآونة الأخيرة،

راحت تقص عليّ ما قرأته على صفحتي في الفيس، أحياناً... تمازحني: «عظيم، بات لك معجبات»!

وتتسع ضحكتها: «هن لا يعرفن أن هذا الـ «روميو» بات في سن اليأس، هل يصح علمياً أن نقول عن الرجل إنه بات في سن اليأس»؟

قلت: «الرجل كالخمر كلما عتق حسن مذاقه».

طوال ليلة أمس بقيت أسمع تنهدها، وهي تحتضن رأسها بكفيها على الوسادة. بالتأكيد لم تنم، كيف استطاعت إلى الآن السيطرة على انفعالها، وهي التي تقف كلماتها على رأس لسانها، هذا ما أثار استغرابي. ربما لا تريد أن تبدو غاضبة أمام الأولاد.

على الدوام توصيني: «علاء، على كل منا أن يبدو أمام الأولاد قدوة».

لم تكن لديّ رغبة في الأكل. قالت ريم: «بابا، لم تأكل شيئاً، ومن قبل قلت: إنك جائع».

«كنت».

خطر لي أن أذهب إلى قاسيون، وأشرب القهوة في أحد مقاهي الجبل... منذ زمن وأنا أحنّ إلى الذهاب إلى قاسيون، وتأمل

دمشق من قمته التي تطل على قلب العاصمة وعلى أطرافها التي باتت في قبضة المسلحين، ومن الأطراف يطلقون القذائف. منذ زمن قصير دعوت شذا إلى القهوة في قاسيون. رفضت: «هل تريد أن تستعيد ذاكرتك مع إحداهن؟... اذهب وحدك، فأنا لا أريد إيقاظ الماضي».

«أي ماض»؟!

«ذكرياتك مع شادن».

«لم أذهب مع شادن إلى قاسيون ولا مرة».

«لا، ذهبت».

في الواقع، شربت الشاي في مقهى صغير مع شادن في قاسيون، يومذاك بكت شادن، وقالت: «أخاف على حبنا من الاغتيال، الحب في مجتمعنا تغتاله التقاليد سألتني ريم «هل أنت ذاهب إلى عملك»؟!

«نعم».

نظرت في المرآة، تبدو ثيابي رثة.

قبل أيام، قالت أم عساف: «عندي معاطف وقمصان وأحذية لم يلبسها أحد من قبل.

تعال وخذ ما تريد، انظر إلى نفسك، لباسك لا يليق بك، أنت مثقف وكاتب، من العيب ألا تكون أنيقاً. الثياب الأنيقة تكسب صاحبها الاحترام».

قلت: «الأولاد يأخذون كل دخلنا».

«أعرف وضعكم، ستظل أنت وشذا كالعنكبوت، تلد أولادها وتربيهم، وفي النهاية يأكلونها».

سقطت قذيفة هاون في أول الشارع، وارتفع دخان من مكان قريب في جهة الغرب من الحي، كان الدخان أسود وكثيفاً كدخان وقود يحترق، ثمة دخان راح يعبر من النافذة، أسرعت وأغلقتها، ارتجف صوت ريم بالخوف: «أبي، الانفجار قريب».

سقطت قذيفة ثانية، ارتج المنزل من جديد، رأيت شذا تغطي رأسها بالوسادة، ولّمت قدميها إلى بطنها وصدرها، وراحت ترتجف.

اخترق زحمة الأصوات أبواق سيارات الإسعاف وسيارات الإطفاء، أغلب شوارع الحي ضيقة، لا تستطيع تلك السيارات المرور فيها، سمعت أم عساف تزعق: «القذيفة في الفرن، يا ويلي، وعساف هناك».

أسرعت إلى مكان التفجير...

سبقتني أم عساف إلى الفرن، بدت منفوشة الشعر وهي تولول، وألسنة الحريق تلتهم الفرن، وثمة سيارات إسعاف تتحرك لنقل المصابين... جاءت سيارة إطفاء، نزل منها رجال يرتدون ملابس زرقاء وعلى رؤوسهم خوذات معدنية، وراحوا يسحبون خرطوماً ملفوفاً على بَكَرة حديدية كبيرة، ثمة رجل راح يوجههم لمد الخرطوم: «افتحوا الماء باتجاه باب الفرن».

لم تعمل قاذفة الماء، كان الأنبوب مثقوباً في أكثر من مكان، اندفعت الماء على المتجمعين وفي الشارع، راح أحد الحاضرين يشتم، امتد الحريق إلى البيت المجاور، وارتفعت النار إلى البناء الذي يرتفع فوق الفرن، وزاد الصراخ، وركض سكان البيوت مفزوعين، قال مسؤول سيارة الإطفاء: «ما الذي أستطيع أن أفعله»؟

شتمه أحد الحضور: «يا، ألم تكن تعرف أن خرطوم الماء مثقوب»؟

جاءت سيارة إطفاء ثانية، لم يكن خزان الماء فيها ممتلئاً، نقل رجال الإطفاء خرطوم الماء بين السيارتين، قالت أم عساف بأعلى

صوتها: «يا أولاد الكلب، نحن في حرب، الناس يحترقون، والنار تمتد إلى المنازل، لو كنتم الآن في أحياء القصور، هل كان هذا سيحدث»؟

عصراً...

جاءت سيارة الإسعاف وأحضرت جثمان عساف في تابوت خشبي، سأل ضابط الشرطة:

«أم عساف، أين ستدفنين عساف؟

ارتفع صوتها في وجهه، قل: «الشهيد عساف، عندما استشهد عساف لم يكن في بار أو في مقهى، استشهد وربطة الخبز في يده، هل تريدون أن تحرمونا شرف الشهادة»؟

أعاد الضابط السؤال: «أين سيدفن الشهيد»؟

«في مقبرة الحي».

قال لها: «من يمت في الحي ينقل عادة إلى مسقط رأسه».

قالت: «لندفن عساف في مقبرة قريبة كلنا هنا من تراب دمشق ومن ماء دمشق».

قال ضابط الشرطة: «هذه مسألة معقّدة، ليس وقتها الآن».

قلت: «لنفكر بنقله إلى حمص لدفنه إلى جوار والده».

علا صوتها: «لا، والده ولد في حمص ودفن في حمص، وعساف ولد هنا في دمشق، وسأدفنه في دمشق».

اقتربت أم عساف من الضابط، ونظرت في وجهه: «انتبه، أيها الضابط... لا يكون الوطن وطناً للإنسان إن لم يكن له في مكان مولده مكان لقبره، الذين لا يستطيعون التشارك في المقابر لا يستطيعون التشارك في الوطن، هل فهمتها»؟

تظل عشق شام تطالبني باللقاء، في الآونة الخيرة، أخبرتني أنها ستفاجئني في مكتبي إن لم نلتق في مقصف الجامعة، كما كنا نلتقي في الماضي، أريد أن أفتح ذاكرتي على تلك الأيام التي مرت، ولما سألتها من تكون قالت: «اترك ذلك للقاء، قد تتفاجأ بي».

صممت على ملاقاتها، على الأقل من باب حب الاطلاع، ومعرفة من تلك التي تأتيني في كل مرة باسم جديد، وتركّز ظني في النهاية على شذا لتمرير لعبة ما.

-١٢-

أخبره الطبيب أنه مصاب بفشل كلوي، وتأخر كثيراً عن العلاج.

بكى، ونحن نغادر عيادة الطبيب وقال: «علاء، هل سأموت»؟!

«أنت خائف من الموت»؟!

«ما يخيفني الوحدة، علاء، لم يعد لي في هذا العالم غيرك».

احتضنته «لن أتركك».

كنت أرافقه إلى المشفى لغسل كليته مرة في الأسبوع، أغلب أجهزة الكلية في المشفى معطّلة لعدم وجود قطع غيار لها بسبب الحصار كما يقول الأطباء. كنا ننتظر ساعات طويلة إلى أن يأتي دور عادل، يظل خلال انتظارنا متضجراً، وقلقاً، وأحياناً يلقي برأسه على الجدار ويبكي .

وأحاول تهدئته: «تخيّل أننا في مقهى، لا تفكر بأمرك، وأنا معك».

أحياناً، يضحك، وتبدو شفتاه وهو يضحك كورقتين جافتين، أحاول أن أقتل الوقت معه بطرح الأسئلة، وعندما تعاوده نوبة البكاء تتوقف أسئلتي.

كان الصباح ربيعياً، ثمة برد خفيف تحمله ريح قادمة من جبل الشيخ.

رحت أتهيأ لمغادرة البيت، سألتني ريم: «إلى أين، أبي»؟

خطر في بالي زيارة «حسام» في عمله بمبنى التلفزيون، اتصلت معه على هاتفه الخلوي وعلى هاتفه الأرضي، لم يرد، اتصلت مع مدير قسمه، رد بحزن: «حسام خطف ليلة البارحة بعد أن قام بتقديم برنامجه أوراق، كانت الحلقة بعنوان «المثقفون القتلة» تحدث فيها عن مثقفي الإرهاب والقتل».

صدمني الخبر.

اندفعت في أزقة المزة ٨٦.

للفقر تفاصيل وملامح لا تظهر على تفاصيل الوجوه وحسب في هذا الحي، وإنما على تفاصيل المنازل وأبوابها ونوافذها وعتباتها وألوان جدرانها وأزقتها، وعلى وجوه الأطفال. رأيت الفرن الذي تهدّم، ورأيت صاحب الفرن يقوم ببعض أعمال الإصلاح فيه، انقذفت كرة بقدم طفل في العاشرة وأصابت وجهي، شعرت برأسي يدور، أسندت نفسي إلى الجدار. ركض صاحب الفرن

وأمسك بي، وشتم الأولاد، سمعت صوت أم عساف تسألني: «أستاذ، ما بك»؟

تراجعت عن الحائط، قالت: «تلوّن معطفك بجير الجدار، هل تحسب نفسك في أبي رمانة أو في المالكي؟ إلى أين في هذا الجو البارد»؟

قلت: «طقّ خلقي، أردت الخروج من البيت».

أطالت النظر في وجهي. سألتها: «ما بك»؟

قالت: «وضعك لا يعجبني، هل ثمة خلاف بينك وبين شذا»؟

«لا».

يظلّ حزن شذا يتوغل في روحي... تمنيت لو أستطيع إقناع شذا بالخروج من حالتها. نحن في الحرب، لا أحد يعلم متى تأتيه قذيفة ويغادر الحياة، لا أريد أن أموت، وأنا وأنت متخاصمان».

تظلّ قناعتي أن شذا لن تغيّر رأيها.

لم يكن في ذهني مكان محدد. أصدقائي في هذه المدينة قليلون جداً، البارحة سألتني عشق شام: «لماذا تقتل عمرك بين أربعة جدران؟ ستقول هو الفقر، «ليس الفقر السبب، ثمة أغنياء كثيرون

يعيشون التعاسة، تلك الجولانية هي السبب، وضعتك في قفص وجعلتك تفرح بوجودك فيه، والزمن يمر، نسيت أنك في قفص، عليك أن تخرج من القفص، اخرج إلى الحياة».

ركبت سيارة أجرة إلى مقهى الحجاز، منذ ثلاثين عاماً لم أدخل هذا المقهى، في أيام الجامعة كان المقهى محطة انتظار لي عندما أسافر إلى مدينتنا، كنت أجلس فيه إلى أن يحين موعد تحرك الباص. لم يعد المقهى كما كان فسيحاً... بدا الشارع في اتجاه الشرق والشمال أمام المقهى نهراً من سيارات من قياسات كثيرة وألوان كثيرة، هذا التنوع في السيارات كما كان يقول حسام يدخل دمشق في موسوعة غينس. والتجار وراء هذه الفوضى الغريبة والمريبة.

ذات يوم سألني حسام: «علاء، متى سنكون من أصحاب السيارات»؟

«ليس في هذا الجيل».

«وهل ثمة جيل آخر»؟

«زوجتي تقول ثمة جيل آخر، وأنا أؤمن برأيها... وتؤكد أننا في الجيل الآخر سنلتقي».

«وفقراء»؟

«لا أدري، نأمل أن نكون في وضع أفضل من وضعنا الحالي».

«وإذا لم يكن ثمة جيل آخر»؟

«عندها... تنتهي الحكاية».

دخلت المقهى... يكبر حزني على حسام، أنا على يقين أن الإرهابيين قتلوه، ربما لم يقتلوه لتعذيبه. أخبرني عادل أن قريبة له أعطت المسلحين مليون ليرة لقتل زوجها. سألته: «لأنها تكرهه»؟ قال: «لا، كانوا يرسلون إليها فيديوهات وهم يقومون بتعذيبه. تمنت عليهم أن يقتلوه ويرتاح من التعذيب».

ثمة امرأة تجلس على طاولة قريبة، وتطالع كتاباً. رحت أدقق في عنوان الكتاب، كان عنوان روايتي التي صدرت منذ سنوات عن دار «الأفق» بعنوان: «عود الزعتر»، بدت المرأة تشبه شادن.

تقرأ المرأة في الرواية، وأحياناً، تنظر نحو الباب وكأنها في انتظار أحد، بالفعل، تشبه شادن... منذ سنوات غابت شادن عن ذاكرتي، أحياناً، تعبر كزلزال منخفض الشدة، وسرعان ما يهدأ

الزلزال، وتغيب اهتزازات الذاكرة، هي اليوم تعود إلى ذاكرتي، موجات متتالية لزلزال الذاكرة، ربما صفحتي على الفيس هي السبب، وربما تساؤلات شذا، وربما تلك الحالة من التوتر التي تعيشها شذا في هذه الأيام، وأظنه الحزن الذي أعيشه اليوم على مجد ويوسف وشذا ومن الحرب، واليوم على حسام. كان حسام يتوقع ما حدث، ولم يكن خائفاً، قال لي في لقائنا الأخير، إن حدث لي شيء سيئ، وهو سيحدث، اكتب عني مقالاً في الصحيفة يكون رثاء لي، لأنني أدرك أنني سأغيب عن ذاكرة الآخرين كما سأغيب من دفاتر الدوام.

بقيت أتأمل المرأة...

بدت أكثر قصراً من شادن، وبات شعرها أكثر سواداً والتفافاً حول وجه أسمر أكثر امتلاء، ترتدي فستاناً أسود يصل إلى ما تحت الركبتين، يضيق على الصدر قليلاً، وبدا نهداها كبيرين، انتبهت المرأة إليّ ولاحظت نظراتي عليها، تجهّم وجهها، واستمرت في قراءة الرواية.

قالت شادن: «علاء، تعال لأعرفك إلى أهلي».

أمسكت بيدي: «أعرفك خجولاً، كن جريئاً وأنت تقابل أهلي، قل لهم إنني أريد شادن».

كانت حركة النقل إلى حي عش الورور قليلة، ثمة باصات متوسطة الحجم.

جلست شادن إلى جانبي في مقعد واحد. التصقت بي تماماً لضيق المقعد. وضعت ذراعي خلف رأسها، عندما لامست ذراعي عنقها من جهة الخلف والحافلة تتمايل عند المنعطف، تراجع رأسها إلى الوراء، ونام على ذراعي.

«علاء، أنا سعيدة بوجودك معي».

«وأنا سعيد».

«انتبه، عشقي بدوي، ليس لعشق البدوية حدود».

«و عشقي بحري، يظل كالموج يعانق الشاطئ».

«وستظل تحبني»؟

«مدى الحياة».

كان الوقت عصراً عندما وصلنا إلى حي «عش الورور» في الشمال الشرقي من دمشق. قالت: «لا تستغرب مشهد الحي، هنا

يسكن فقراء من كل مكان في الوطن. كما يقولون من كل بستان زهرة. يوم قال لنا أبي اشتريت منزلاً في دمشق، اعتقدت أمي أنها ستسكن في قصر، تفاجأت يوم رأينا تلك المنازل الفقيرة الواطئة، سألت أبي: أهذه دمشق؟ علاء، لا تتفاجأ الآن بما ستشاهده، والدي ليس جنرالاً كوالدك، هي مستورة والحمد لله».

توقفنا أمام باب حديدي أسود قريب، ثمة شبكات كثيفة من أسلاك الكهرباء، قالت: «قد تشتعل الحارة بهذه الأسلاك في أي لحظة، أو قد يسقط أحد الأسلاك على أحد المارة فيحرقه، هكذا هي الحياة في أحياء الفقراء».

انفتح باب حديدي فقير... لم تتفاجأ أمها بي. قالت:

«أكيد علاء، حدثتني شادن عنك».

جاء والد شادن، جلست معه على بساط صوفي ذي ألوان فاقعة مخطط على شكل مربعات ومستطيلات، اتكأت على مسند من القش، وقدّمت لي شادن وسادة من القطن لأسند ركبتي وسألتني: «هل أتعبك الجلوس هكذا»؟

قلت: «لم أعتد على ذلك».

كان البيت فقيراً مكوّناً من ثلاث غرف، وثمة مطبخ صغير ملحق به حمام في أقصى فسحة، تتوزع على أطرافها بعض أصص الحبق... وثمة وردة جورية عند المدخل. قدمت أمها القهوة المرّة، «هي قهوة أهلاً وسهلاً».

كان والد شادن في مطلع حياته معلماً في مدرسة ابتدائية، ثم انتسب إلى الكلية العسكرية وسُرّح برتبة مقدم. طويل القامة، نحيل الجسم، أسمر الوجه... أشيب الشعر... يبدو مظهره أكبر من عمره الحقيقي، أظنه في الستين من عمره. أخبرني أنه على مشارف الخمسين وأن زوجته على مشارف الخامسة والأربعين. بدت ممتلئة، متوسطة الطول، بيضاء الوجه، في أسفل ذقنها وشم، تضع على رأسها إيشارباً ملوّناً بألوان فاقعة، تتماوج بين الأحمر والأزرق والأسود، وترتدي فستاناً كحلي اللون مطرزاً على الصدر.

راح الغروب يتقدم على أطراف الحي، ليس ثمة مصابيح في الشوارع الترابية.

أخبرني أن أحد أولاد عمومته ضابط في سلاح المدرعات الأردني، وأنه طلب يد شادن، ويريدنا أن نسافر إلى هناك ونعيش معه.

قالت له شادن: «أنا وعلاء متحابان».

انتفض غاضباً: «قلت كلمتي وانتهى الأمر».

نهضت وغادرت.

جاء النادل: «الشاي، يا باشا».

جاء رجل ومعه شابان صغيران، تحدثوا مع المرأة. وغادرت معهم المقهى.

سمعت صوت انفجار في الشارع بعد خروجهم من المقهى بدقائق، ركضت إلى مكان الانفجار، رأيت المرأة على الأرض مضرجة بدمها، ورأيت روايتي، «عود الزعتر»، مبللة بالدم، أمسكت بالرواية ورفعتها، ثمة خيط من الدم راح ينحدر من الرواية على الأرض، أمسك بي شرطي ودفعني إلى الخلف: «ابتعد».

كان المساء يقترب. منذ الصباح وأنا في المقهى، قرأت صحيفتين محليتين، من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة، لا شيء استوقفني فيهما، الصفحة الأولى أخبار الجهات المسؤولة، وثمة أخبار قليلة عن الحرب، توقفت عند رمايات كثيفة تطال الجامعة. كانت الصفحات الثقافية تملؤها كتابات عاشقة. لا شيء في تلك الصفحات يعبّر عن أهوال الحرب.

مرّ وقت طويل على خروجي من البيت.

بالتأكيد ستكون شذا قد خرجت من غرفتها.

حاولت أن أتذكر عمر شذا، أول مرة أفكر بسنوات عمرها، رحت أحسب سنوات عمرها من الولادة إلى الآن، عرفت أنها على مشارف الخمسين، أنا وشذا وسلمى وريتا وماجدة ونرجس في عمر واحد.

حزن شذا اليوم جعلني أكتشف أنني أعيش حالة إهمال عاطفي معها.

تظل منشغلة بالبيت وبإلقاء نصائحها على أولادها، وأنا وراء الحاسوب، الذين عرفتهم في الجامعة هم اليوم خلف طاولات أنيقة، وفي مكاتب أنيقة، وأنا وراء طاولة صغيرة في غرفة نوم تآكلت فيها الذكريات والحكايات والأحلام.

تساءلت: هل كانت أمي تعاني من الإهمال العاطفي، أم أن أبي كان يعيش تلك الحالة، فمات الإحساس بالحب بينهما؟ أذكر يوم زرت قرية عمتي في صيف ما قبل الماضي، رأيت وجه عمتي فاطمة على الأشجار وفي البيت الترابي وعريشة العنب وجرّة

الماء. جلست على حجر كبير تحت شجرة بلوط تظلل مدخل بيتها، شعرت أن كل شيء بعد رحيلها صار موجوعاً ومهملاً. ويحتاج إلى الدفء العاطفي.

راح البرد يعبر إلى كل مفاصل جسدي. كانت فكرة العودة إلى القرية تكبر في رأسي. خطر في بالي أن أتصل مع شذا من هاتف المقهى وأخبرها بقراري مغادرة دمشق نهائياً. غمرت رأسي بين كفيّ. جاء النادل: «هل تشكو من شيء، يا عم»؟

«لا».

ظلّ وجه المرأة المبلّل بالدم في رأسي. قررت الاحتفاظ بالرواية المبللة بالدم، ذات يوم سألتني «عشق شام» إلى أي حد تتطابق حياتك مع حياة أبطال رواياتك؟

أرجو أن أكون بطلة روايتك القادمة، ليس كما هنَّ بطلات رواياتك التي كتبتها من قبل، أحب أن تقدِّم عشقاً كشهر زاد في ألف ليلة وليلة.

«لماذا ألف ليلة وليلة»؟!

«أنا وأنت، نحتاج إلى عالم خيالي».

لا أعرف مما أهرب...

أريد أن أعبر إلى كل شيء في لحظة، وأغادره في لحظة، كومضات سريعة في شريط سينمائي، في الآونة الأخيرة أجد ذاكرتي مفتوحة على شادن.

يوم قالت لي شادن: «أريد أن أهرب معك. خذني إلى أي مكان في هذا العالم»!

قلت: «أنا لا أملك أي شيء لعيشنا».

«أعمل خادمة في البيوت، ونعيش في خيمة».

«سيلحقون بنا إلى أي مكان نذهب إليه».

قالت: «انظر في عيني»!

نظرت في عينيها.

«افتح عينيك جيداً، وركّز نظرك في عيني، افتحهما أكثر، أكثر».

شعرت بقوة ضوئية تخترقني. أغمضت عيني، قالت:

«لا تغمض عينيك»!

«لا أستطيع، هل هي لعبة»؟

«لا، ليست لعبة. سأقول لك: أنت جبان، وأنا لا أحب الرجل الجبان».

مشيت في شارع الثورة، ثمة أصوات الانفجارات قوية قادمة من منطقة جوبر وداريا، وسمعت صوت قذيفة تسقط في منطقة ساحة عرنوس. وارتفع دخان في سماء دمشق. لم أكن أتبين مصدر الدخان؛ كان كثيفاً فوق المدينة. ثمة جنود يقفون في ساحة الأمويين يحملون بنادقهم متأهبين.

عبر إلى داخل الثكنة القريبة من الأركان ضابط كبير محطة التلفاز أنيقة ووراءه سيارة (رانج) فيها جنود بخوذاتهم وبنادقهم، تأملت وجه جندي يقف في باب الثكنة، في عينيه حزن، سألني:

«ماذا تفعل هنا، يا عم، تحرك».

تذكرت حساماً، خطر لي أن أذهب إلى مدير التلفزيون لأقول له: «لم تكرموا حساماً كما يجب. ضعوا اسمه على باب إستديو». فاجأني الحارس «ما الذي تحمله في كيس النايلون»؟!

ارتبكت، وعندما لم أجبه، أمسك بالكيس، وفتحه.

وجد الرواية المبللة بالدم. سأل باستغراب:

«هذا دم»؟

أمسك بي وأدخلني إلى غرفة صغيرة يجلس فيها ضابط، كان الضابط يشرب المتة... رويت له حكاية المرأة والرواية.

هزّ رأسه، وضحك: «عندما يقولون الكتّاب أنصاف مجانين، فهو قول صحيح».

-١٣-

ما الذي سيحدثه هذا اللقاء بيننا اليوم بعد تلك الرسائل الكثيرة التي ظلت تدعوني فيها إلى اللقاء. لم تقل إنها شادن، وشذا لم تلمّح أنها صاحبة تلك الأسماء، إنها مسرحية بطلتها إحدى زميلاتها وبمعرفتها. في أي حال سأعرف اليوم من هي، وسأفترض أنها شادن، أو امرأة أخرى، أو ربما تكون شذا، أو من انتدبته عنها إلى هذا اللقاء، ومهما كان الأمر، لقد بت مصمماً على اللقاء وهو الوقت الذي أشعر فيه بضياع عاطفي واجتماعي واقتصادي، كما تقول ريم لي: «أبي، نحن نعيش حالة ضياع».

ثمة شمس خجولة تضيء دمشق، وتلقي على الشوارع المؤدية إلى الجامعة المزدحمة بالشبان والفتيات شالها الضوئي، ساعتي تشير إلى العاشرة صباحاً.

بعد ثلاثين عاماً، أدخل إلى مقصف الكلية، وقفت في بابها، لم تبدُ كما كانت يوم كنت طالباً... كل شيء بدا فيها من الداخل مختلفاً،

ثمة طاولات من البلاستيك بدلاً من طاولات (الفرميكا)، والجدران صبغت باللونين الزهري والأزرق في تداخل بدا لطيفاً، الشباب بطبعهم يحبون هذا التداخل اللوني، وثمة كراسٍ من البلاستك لها أرجل من الألمنيوم وغابت كراسي الخيزران، وعلى الجدران ثمة لوحات جدارية سوريالية، وتبدّلت كؤوس الشاي وفناجين القهوة، وثمة شاشة تلفاز كبيرة في صدر الجدار القريب من طاولة العم عدنان «أبو الفخر» الذي يدير المقصف منذ أربعين عاماً، تبث أغاني غربية راقصة من محطة لم أتبين ما هي. كان الطلاب يصخبون، وهم يرشفون كؤوس القهوة والشاي... وثمة عدد منهم يلتقطون الصور (سيلفي...) بعدسة التصوير الأمامية للهاتف المحمول وآخرون يكتبون على هواتفهم، أو يتصفحون صفحاتهم على الفيس بوك، وثمة من يتكلم على الهاتف، بدا المقصف غابة من الأصوات والضحك والدخان، وكؤوس من الشاي، والقهوة، والكابتشينو... بقيت في الباب أتأمل المشهد. جاءني صوت أبي عدنان خشناً ومبحوحاً: «تفضّل يا أخ، ماذا تريد»؟

كان أبو عدنان يجلس ويسند مرفقيه إلى طاولة خشبية مغطاة بغطاء من النايلون، تتكوم أمامه في صينية من الألمنيوم كؤوس وفناجين فارغة، وعلى طرف من الطاولة أوراق ودفتر، وقلم حبر

في كأس من البلاستيك. هذا المشهد لم يتغيّر منذ دخلت هذه المقصف أول مرة.

«مرحباً... عم «أبو عدنان».

«أهلاً».

أخذ نفساً من لفافته، وتأملني بعينين متعبتين انسدل عليهما شعر حاجبين كثيفين أصابهما الشيب... بقيت أنظر إليه من أعلى وهو واقف، ثمة فسحة واسعة في مؤخرة رأسه تصحّرت تماماً من الشعر، وبدت تجاعيد وجهه، وجبهته عميقة، فبدا أكبر من عمره بكثير.

سألني: «هل تبحث عن أحد»؟

«ألم تعرفني»؟

راح يتأملني... بدا جسده ثقيلاً، ومحنياً إلى الأمام كشجرة حور أحنتها عاصفة، وقف ووضع كفيه على خصره، وقال: «أحاول، أظنني رأيتك من قبل»، وعندما ابتسم، بدت شفتاه غليظتين، وفي وسط الشفة السفلى بقعة بلون الصدأ من أثر النيكوتين... وبدا فمه أشبه بمغارة خاوية إلا من بعض صواعد ونوازل صدئة في جوف فمه.

«ألم تعرفني»؟

تنهّد: «العتب على العمر... أظنني رأيتك من قبل، لكن أين؟ لم أعد أذكر»...!

اقترب مني وهو يحدّق في وجهي، وقال بصوت متعب: «كنت في زمن ما أعرف المدرسين والطلاب الذين مروا على هذه الكلية، اليوم... تعبت ذاكرتي... تصوّر... أحياناً... لا أذكر أسماء أولادي وأحفادي». ومال برأسه إلى الأمام.

قلت: «دقق جيداً».

نهض صوته: «آه... عرفتك».

وابتسم. بانت أسنانه الباقية في فمه صدئة، وعند أعناقها كانت سوداء تماماً. هزّ رأسه، وأمال قبعته الصوفية إلى الأسفل قليلاً، فغطّت حاجبين أصابهما الشيب:

«علاء... علاء يوسف الغانم! أوه زمان... ماذا حصل لك... داهمتك الشيخوخة باكراً»؟

أخذ نفساً عميقاً، وعاد إلى كرسيه، وأمال رأسه إلى الأمام فوق الطاولة:

«أثقال الروح أشد قسوة من أثقال الجسد»...

«اجلس إلى جانبي، ما الذي جاء بك إلى هنا، هل ثمة أحد من أولادك هنا»؟

«لا».

راح يمسح بباطن كفه فمه، وأسفل ذقنه، بدت شرايين ظهر كفه نافرة... وشديدة التعرج، وأصابع كفه ثخينة، لم تغادر نظراته وجهي، وهبت أسئلته متلاحقة:

«أين أنت؟ ما هي أخبارك؟ لديك أولاد؟ وماذا يعملون؟ وضعك المعيشي في زمن الحرب؟ لعن الله هذه الحرب، كل شيء في الوطن تغيّر، إنها الحرب»؟

وضع يده على كتفي، «هل تشرب قهوة أو شاياً؟ لم تعد لدينا قهوة أيام زمان ولا شاي أيام زمان ولا طلبة أيام زمان... كل شيء تغيّر. اجلس».

قرّب كرسياً، «تفضل».

قلت لا... أنتظر سيدة... تواعدنا على اللقاء هنا».

«قريبة، صديقة، طالبة أو مدرّسة»؟

«نحن أصدقاء على الفيس ولم نلتقِ من قبل».

ضحك: «علاقة حب وأنت في هذا العمر»؟!

«لا، مجرد صديقة أصرّت على اللقاء هنا، لا تذهب بأفكارك بعيداً».

قال: «خذ الطاولة القريبة من النافذة التي تظللها شجرة الفلفل الهندي».

ومشى أمامي، إليها ومسحها «قهوتكما عليّ».

ثمة مطربة غربية كانت تغني على التلفاز، كلمات الأغنية تعبّر عن اشتياق حبيبة لحبيبها المسافر... في الواقع... لم أكن أعرف أسماء المطربين والمطربات... ولم يكن لديّ الوقت لسماع الأغاني... وربما نسيت أن هناك غناء، وأغنيات...

في أيام الجامعة وقبل الجامعة... كنت أعرف أسماء المغنين من المحيط إلى الخليج... وأسهر مع أغنيات أم كلثوم، وعبد الوهاب، وعبد الحليم... اليوم... بت أشبه بقطار عجوز متعب يتحرك بين محطتين... بين عملي في وزارة الاقتصاد... والبيت... كل شيء يتكرر... الوجوه تتكرر... والأحاديث تتكرر، لاشيء يتجدد،

حتى نافذة مكتبي التي أطلّ منها على مساحة واسعة من دمشق، وعلى جبل قاسيون، أفتحها في كل صباح... منذ ثلاثين عاماً، والمشهد نفسه.

وثمة فنجان قهوة لا يغادر طاولتي.... هو الفنجان نفسه... وأبو أحمد الذي يقدّم القهوة في مكان عملي هو نفسه: «صباح الخير أستاذ، قهوتك ستكون جاهزة في أقل من دقيقة».

وحده المدير كان يتغيّر... في كل عام يأتينا مدير جديد... وكلما تغيّر وزير يتغيّر المدير، لم يكن العاملون في المكتب يتفاءلون بالقادم، كان عادل يقول: «كلما جاء مدير نتفاءل لكن سرعان ما نتذكر بالخير من سبقه... كل شيء يتحرك باتجاه الأسوأ». كان بعض المديرين الجدد يقولون لي: «نقرأ ما تكتبه».

ولكن هذا لم يكن يغيّر من طبيعة عملي. كلهم أجلاف، يجلسون في مكاتبهم لاستقبال زوارهم، وثمة من يستقبل صديقاته ساعات.

كان بعض المديرين ينقلون من المديرية إلى موقع أعلى... أو إلى موقع أدنى، أو يخرج أحدهم مطروداً من موقعه بعد أن شبع كما يقول عادل: «هو شبع ولم يعد يريد المكان، حاسب على كلامي سيختفي كالخُلد، هل تعرف الخُلد»؟

«إي أعرفه. حيوان كالجرذ يحفر أنفاقاً تحت الأرض، يختفي، ولكن سرعان ما يظهر في مكان آخر».

يضحك عادل: «لم تُنسكَ المدينة قرويتك».

يمر الوقت بطيئاً... وأنا أنتظر.

يصدح صوت محمد عبده: «الأماكن كلها مشتاقة لك».

أحببت الأغنية... هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الأغنية ...راحت تثير الأغنية شجوني، وتساءلت: لماذا قتلت عمري بهذه المأساوية.

رأيتها في الباب تتفحص الوجوه باحثة عني... عرفتها... شعرت بقلبي ينتفض... ثلاثون عاماً مرت على لقائنا الأخير... ياه! الزمن سريع... رحت أتأملها وهي تقترب... هي شادن، هي لم تتغير... أومأت لها بيدي... ونهضت لاستقبالها.

لم تكن ترتدي كعادتها بنطلولاً من جينز وقميصاً بلون فاتح، مغلق عند فتحة الصدر، ولم تكن تربط شعرها كعادتها ربطة «ذيل الحصان»، أو تلقي نصفه إلى الخلف على ظهرها، ونصفه الآخر على الصدر... كانت ترتدي فستاناً رمادياً طويلاً يصل

إلى تحت ركبتيها، وتضع على رأسها إيشارباً أبيض من قماش ناعم يغطي شعرها وكأنه حجاب، ثمة خصلة شعر سوداء عند الجبهة نفرت هاربة من تحت الإيشارب إلى الأمام لترسم قوساً حول جبهة ناعمة لم تلمسها خطوط التجاعيد بعد، وكان على شفتيها قليل من أحمر الشفاه جعل ابتسامتها كوردة جورية تفتحت توّاً.

سألتها: «عشق شام»؟

«نعم، هل عرفتني»؟

تظاهرت أنني لم أعرفها، قلت: «لا أتذكر أنني رأيتك من قبل».

«معك حق، الزمن، والعمر، ومشاغل الحياة، المهم أنك وافقت على اللقاء».

جاء أبو عدنان، وسأل: «كيف تشربان قهوتكما»؟

قلت له: «هذه شادن، هل تتذكرها؟

«أتذكرها، وأتذكركما معاً. مليون فنجان قهوة ومليون كأس شاي في هذا المقصف شربها تلامذة، وحدكما من ظلّ طعم قهوة أبي عدنان في فمه».

قالت شادن: «أريد قهوة مرّة».

قال أبو عدنان: «وأنت علاء، قهوة سكر قليل، فأنا مازلت أذكر».

عادت شادن تسألني: «هل تعمدت أن تختار طاولتنا هذه، هنا جلسنا في أول لقاء»؟

«لا، المصادفة».

لم أتقصّد ذلك، ونسيت أنها الطاولة التي ضمتنا أوّلَ مرة، تأملت كفها، أصابعها أكثر سمرة، وثمة شرايين ناعمة واضحة قليلاً وكأنها أنهار رسمت بالأزرق على خارطة، وثمة محبس مزيّن بحبيبات بيضاء، لا أدري إن كانت تلك الحبيبات من الألماس الطبيعي أو الصناعي...

بدا المحبس جميلاً في إصبعها المدبب إلى الأمام. وبدا وجهها يفيض بالبساطة والطيبة...

ثمة خطوط تجاعيد ناعمة حول العينين، والشفتين... وحول عنقها... حاولت إخفاءها ببودرة خفيفة. عندما ابتسمت، بانت تلك الخطوط أكثر وضوحاً... وظلت ابتسامتها جميلة، قالت: «تغيرت الجامعة، وكل شيء تغير».

قلت: «هو الزمن».

وخطر لي أن أقول لها: «لكن حبي لك لم يتغير». وجدت في ذلك جرأة غير محببة... تتلمس نظراتها وجهي. ارتبكت... ونزعت نظارتي الطبية عن عيني، وفركتها بقطعة قماش صغيرة لإزالة الغبش عنها، وأعدتها إلى عيني. قالت: «تليق بك النظارة».

ابتسمت: «هذه مجاملة».

«لا... من الضروري أن يضع كاتب مثلك نظارة، هل هي طبية»؟

«نعم».

«تليق بك كيفما كانت».

كنت أدرك أنها تجاملني، لهذا لم أعلّق.

قالت: «اليوم جئت من الأردن».

تمنيت لو أسألها إن كانت جاءت إلى دمشق لرؤيتي. لم أرَ السؤال مناسباً... شادن بطبعها خجولة... وجريئة عندما ترى من الضروري أن تعبّر عن رأي أو موقف.

أخبرتني أنها في زيارة ومعها أولادها الثلاثة «علاء وهو الولد الأكبر، وحسين، وفاتن» تركتهم في الفندق، وجاءت لرؤيتي كما اتفقنا على «الفيس». لم أسألها لماذا أسمت ولدها الأكبر علاء. كنت لا أريد أن أتحرش بذاكرتها.

قلت: لها: «بماذا سأناديك»؟

ابتسمت، «تستطيع أن تقول أم علاء... أو قل شادن كما كنت تناديني في الماضي، وأنت... ماذا عنك»؟

«ثلاثة أيضاً... صبيان... وابنة... الابنة... كنت سأسميها شادن، لكن زوجتي رفضت من دون أن تعلن سبب رفضها، ولأنني كنت أعرف السبب تجاوزت ذلك، وأسميتها ريم، والصبيان واحد يحمل اسم أبي: يوسف، والآخر اسم والدها مجد.

سألتني: «كيف حال شذا».

«جيدة».

لم تعلّق، ولم أزد على ذلك قولاً.

أمسكت بروايتي الأخيرة «حدائق الريح».

وكتبت عليها إهداء صغيراً «إلى شادن. التي لا تغادر ذاكرتي».

قرأت الإهداء، وابتسمت: «قرأت روايتك «بوح القرنفل» وقرأت عليها الإهداء نفسه، ولكن دون ذكر شادن، هل كان إهداء لي؟!

أومأت برأسي.

أريد أن أسمع أم انك مازلت جباناً، اتهام البطل للبطلة بالخيانة لم أره اتهاماً منطقياً. أنا لم أخنك.

قلت: «هي رواية».

ابتسمت، «وهل يموت الصدق في الرواية»؟

ثمة شاب وفتاة كان يجلسان متجاورين على طاولة قريبة منا، تركت الفتاة رأسها على كتف الشاب، وراحا يلتقطان صورة (سيلفي).

كانت شادن تراقبهما، وتبتسم. قلت: «هذا لم يكن في زماننا».

أمالت برأسها، وابتسمت ابتسامة خجولة، «نعم».

راحت تحدثني عن الحرب، قالت: «ظل قلبي مع الوطن. قلت: لزوجي الذي يعمل في غرفة (الموك): «اختر حياتك في (الموك) أو أنا»؟ في البداية رفض. «قال هي أوامر وأنا جندي». قلت له:

«روحي وجسدي ليست لمن يتآمر على بلدي.«انحاز إليّ، هو اليوم خارج الجيش. كان شوقي كبيراً للوطن، أتابع أخباره لحظة بلحظة، عندما تحررت المنطقة الجنوبية وأطراف دمشق، وفتح معبر نصيب، رحت أتهيأ للمجيء، ولرؤيتك. منذ زمن، كنت أرى صورتك في الصحف... كل ما كنت تكتبه في الصحف كنت أتابعه على شبكة النت... ما تكتبه لا يشبهك. قلت: في نفسي، ربما كان الكاتب إنساناً آخر غير علاء، الصورة كانت تؤكد أنك أنت، ما تكتبه كان رمادياً...! ما بك»؟

رحت أتابع شاباً وفتاة على طاولة قريبة منا...

عندما نام رأس الفتاة على كتف الشاب وهما يلتقطان صورة (سيلفي)، نظرت إلى شادن ونهضت من وراء طاولتي، لا أدري من أين جاءتني الجرأة... وقفت وراءها تماماً، قلت:

«هل تسمحين لي بالتقاط صورة (سيلفي)معك»؟

ظلت صامتة... لا أعرف إن كانت تبتسم أم لا... انحنيت إلى الأمام، صار رأسي قريباً من رأسها، تنفست رائحة شعرها، امتلأت رئتاي برائحة الحبق... كان رأسها يميل قليلاً نحوي، وظلت رائحة عطرها تنسرب إلى رئتي. التقطت صورة (سيلفي).

عندما عدت وجلست قبالتها... ابتسمت ابتسامة خجولة... ولم تقل شيئاً... تناولت الرشفة الأخيرة من فنجان قهوتها... وقالت: «رأيتك بخير... سأغادر إلى معرض الكتب... أود شراء بعض الإصدارات الجديدة قبل أن أسافر».

على فكرة روايتك الجديدة، «العنّاب» وصلتني منذ أسبوعين عن طريق صديقة، قرأتها في ليلة واحدة. وتأثرت بأحداثها... الواقع العربي فيها يبعث على الحزن.

قلت: «أرافقك إلى معرض الكتب».

قالت: «لا».

فتحت حقيبتها الجلدية، وقدّمت لي زجاجة عطر... ورواية بعنوان: «طقوس للعشق»، وأخرجت قلم الحبر الذي أهديتها إياه ونحن في الجامعة، هذا قلمك، مازلت أحتفظ به، وأنت هل تحتفظ بالأيقونة؟

قلت: «أهديتها لابنتي ريم».

وقفنا متقابلين، أمسكت بيدي، ومشت نظراتها على وجهي، وتوغلت في عيني... وساد صمت طويل. أول مرة أدقق النظر في

عينيها كانتا عسليتي اللون... وجميلتين، تحت حاجبين سميكين متروكين على طبيعتهما.

قالت: «هل تصدق أنني أخلط الآن بين مشاعري، وبين أحلامي. أراك مختلفاً عن الآخرين... ربما لأنني أحب فيك نمطاً واحداً من البشر... تختلف عن البشر جميعهم». ظلت تحتضن كفي: «قد نلتقي مرة أخرى... وقد لا نلتقي أبداً». وقبلتني على وجهي:

«نحن إخوة... في الرواية القادمة إن كتبت عن شادن، لا تكن ظالماً، قل والتقينا كإخوة، هل يصلح هذا عنواناً لمقال رومانسي أو رواية»؟

راح يسطع في عينيها وهج لم أره من قبل بهذه الروعة...

خطر لي أن أطلب إليها أن نأخذ معاً صورة (سيلفي) أخرى...

قالت: «سأغادر».

«سأدعوك إلى الغداء».

«لا، ابق في مكانك، واشرب قهوتك».

-١٤-

تعثرت قدماي بطاولة المطبخ. قلت بنزق وبصوت عالٍ: كل شيء بات مقرفاً».

توقفت ريم عن طرح الأسئلة، منذ البارحة لم يأتِ يوسف إلى البيت، وسألتني ريم مرات: «أين سيكون يوسف»؟ كنت أجيبها: «الغائب عذره معه». انتابني شعور بالخوف عليه، وضعت احتمالاً أكبر أن يكون غادر البلد دون أن يعلمنا كما فعل مجد.

ثمة قلق يجأر في رأسي، شعرت أنني في طريقي إلى الجنون، وربما يتوقف قلبي تماماً، جاءت أم عساف تسألني إن فكرت ببيع البيت أو تأجيره، كنت في هذه المرة قاسياً في ردي عليها: «أم عساف هل تريدين شراءنا ببعض الدولارات التي بت تملكينها، يوم كنت فقيرة كنت تقولين: «أنتم أهلي وأخوتي وكل أقربائي في هذا العالم»، اليوم تغيّرت بعد أن صرت تملكين دولارات.

ردّت أم عساف باستخفاف: «ستضطر إلى بيعه».

شعرت أنها تمارس التهديد عليّ، أم عساف تغيرت بعد أن توسعت تجارتها، وصارت تستقبل البضاعة المهربة من بيروت وبرعاية وحماية أبي صفوان، وأحياناً تقول بتفاخر إن أبا صفوان أكثر من شريك، والحياة فرصة، لماذا تتحسن أحوال بعض الناس ونحن نتفاخر بنقائنا وفقرنا. أستاذ علاء، جربت الفقر، وآلمني، لا أريد أن أظل ملسوعة بأنيابه، اكتب أنت ما تشاء، وأنا سأفعل ما أشاء.

كبر إحساسي بالهزيمة والقلق، كل شيء كان يضيق عليّ ويعتصر روحي، تنبأ لي عادل بمرض يصيب قلبي أو معدتي: أنت تكبت مشاعرك. لا تبق صامتاً. الصمت يغلق شرايين القلب والرأس.

لا شيء يستحق أن نحزن لأجله. أرأيت ما فعل الحزن بي؟ ضرب كليتي، وأنا اليوم أنتظر موتي.

في آخر مرة كنت برفقته إلى المشفى، كان في حالة يأس حادة. قال لي: «أظنها المرة الأخيرة التي سنذهب فيها إلى المشفى، إن لم

أمت قبل موعد الزيارة القادمة، سأرفض الذهاب إلى المشفى، لماذا المكابرة ؟ ما أفعله هو محاولة للهروب من قدري، موتي آتٍ في النهاية».

لأول مرة أدقق في وجه ريم جيداً... وجهها الحنطي يوحي بالحزن. ورثت هذا الحزن مني، وورثت من أمها الصمت .

«أبي... القهوة».

يوم ماتت عمتي فاطمة كانت ريم في نهاية المرحلة الابتدائية، جاءت إلى دمشق للمعالجة، أمضت شهراً معنا في البيت. تمنيت لو أنني أسميت ريم فاطمة. كانت غلطة، مازلت أشعر أن ضميري يؤنبني... ماذا لو أسميتها شادن... يوم قلت: لشذا: «نسميها شادن». قالت: «أعرف، أنك تريد أن تسميها باسم حبيبة القلب شادن».

لم أكن أحب الدخول مع شذا في حوار حول الماضي، لأنها ستبني على حوارنا قصصاً وحكايات سترددها في كل حوار قادم.

قرأت في نظرات ريم وهي تقدّم القهوة الشفقة عليّ. هذا الأمر أزعجني وأغضبني. كان أبي يقول لي وهو على فراش

الموت: «لا تظهر شفقتك عليّ، هذا يشعرني بالهزيمة والضعف، أنا قوي، وسأظل قوياً إلى أن أسقط عن جواد أيامي في حفرة باردة، كن حنوناً فحسب. الحنان غير الشفقة. في الشفقة شعور بالذل والهزيمة».

بقيت أمسك بفنجان قهوتي.

لم يكن في الصالون طاولة صغيرة لأضع فنجاني عليها. سألتني ريم: «ما الذي جعلك تبتسم»؟

قلت: «تذكرت جدك. مات وهو يشعرنا بأنه قوي».

«هل تريد أن تقول إنك هزمت».

تزدحم الأفكار في رأسي طوال الليل. كل شيء من حولي يضغط على رأسي. أسئلة كثيرة قلقة تدور وصور من الماضي ووجوه. صديقي حسام اختطف ولم يظهر عنه شيء إلى الآن. وضع عادل صعب، في الصباح عليّ أن أرافقه إلى المشفى. في المرة الماضية بكى، انتظرنا ساعات إلى أن جاء دوره.

«لماذا تبكي»؟

«أخاف أن يطول عذابي».

كانت أفكاري بمغادرة دمشق إلى مدينتنا، وعلى الأصح، إلى قرية عمتي فاطمة تتسارع في رأسي. كنت حائراً بين أن أخبر شذا برغبتي هذه قبل الذهاب إلى عادل في الصباح، أو بعد العودة من المشفى. تتقلّب شذا في السرير. أظنها قلقة. هل يا ترى تتهيأ لتقول شيئاً؟ في اليومين الأخيرين تحوّل صمتها إلى نظرات صامتة تتوقف ثقيلة على وجهي، وكأنها تحتاج إلى لحظة من الشجاعة لتقول ما في رأسها. لم تكن نظراتي تشجعها على الخروج من صمتها. في رأي عادل، من المستحب أن أتركها لتقول ما تريد قوله، في النهاية ستقول... وصمتها لن يدوم طويلاً، ضع كل الاحتمالات، ربما تطلب بناء مرحلة جديدة ابتعاداً عن الماضي، أو أنها ستقرر الابتعاد عنك... كل الاحتمالات واردة. زوجتي تقول ما في رأسها على الفور عكس شذا التي تمسك بانفعالاتها طويلاً كبركان صامت، يتهيأ للانفجار.

كان في رأيي مغادرة دمشق تحتاج إلى كثير من الإرادة والشجاعة.

مرّ وقت طويل وأنا أقلّب الأمر في رأسي. أشعر أنني في زورق بحري صغير تائه عن الميناء، تتقاذفه أمواج غاضبة في كل

الاتجاهات. نهضت إلى الصالون، وجلست على كرسي متهالك، إلى الآن لم يأتِ نجار لإصلاح الأريكة. عادة، عندما أقلق، أخرج إلى الصالون وأتمدد على الأريكة، وأتابع برنامجاً على التلفاز، أو أقرأ كتاباً إلى أن أشعر بالنعاس، وأدخل إلى غرفتي بهدوء كي لا تستيقظ شذا، وأتمدد إلى جوارها، أحياناً تستيقظ، وتسألني أين كنت؟ لا أخبرها أنني قلق، لأن ذلك سيستنفر أسئلتها، لماذا أنت قلق؟ ما الذي يقلقك؟ تركت رأسي على الجدار. جاءت ريم، تأملتني، وغادرت، راح الفجر يقترب.

البارحة أنهيت كل أوراقي في وزارة الاقتصاد، قال المدير المسؤول: «اترك الآن أمر الانتقال النهائي، سأرسلك تحت عنوان مهمة إلى الساحل، وعندما تشعر أنك في وضع مريح تعالَ، وابدأ عملك هنا أو خذ قرارك النهائي بالانتقال».

سمعت صوت أم عساف تتحدث على الهاتف، تطلب بضاعة جديدة، وجاءني يوسف، وهزّني من كتفي: «أبي، لماذا أنت هنا؟ اذهب إلى غرفتك».

قلت: «افتح التلفاز لأرى ما الذي يحصل من أحداث، كل لحظة حدث جديد».

فتح التلفاز، كانت فيروز تغني، راح يوسف يضحك: «هي فيروز لم تتأثر بالحرب، تغني في كل صباح، جماعة الإعلام يهربون من الأحداث إلى فيروز. أبي اتخذت قراري بمغادرة البلد لإكمال دراستي».

رنّ الهاتف. هواتف الصباح التي تأتي قبل شروق الشمس تخيفني. جاء في بالي عادل. أظنه سيخبرني لأذهب إليه لأرافقه إلى المشفى، أم أن أحدهم يتصل ليخبرني أنه رحل وارتاح. فكرة الموت لم تعد تقلقني على عادل. كنت أرى أن الطريقة الوحيدة لخروج عادل من كل وجعه الجسدي والنفسي والمادي هي الموت. كان أبي يقول: «إن عظمة الموت أكبر من عظمة الولادة، في الموت راحة أبدية من قسوة الحياة الصعبة».

كانت أختي يمامة على الهاتف: «علاء، أتمنى أن أسافر إليك، من جهة أراك وأرى أولادك، اشتقت إليهم، ومن جهة أخرى أحتاج إلى بعض الفحوص الطبية، في دمشق الأمور الطبية أفضل».

«أنا أنتظرك. تعالي قبل أن أنقل عملي إلى مدينتنا ونسكن معاً، اليوم سأذهب مع صديقي عادل إلى المشفى لغسل كليته،

ليس للرجل غيري. زوجته تركته وأولاده تركوه، كان أباً طيباً. زوجته خرّبت حياته. الزوجة إما أن تخرب حياة زوجها أو تملأها فرحاً. بيوت كثيرة نراها من الخارج سعيدة، وهي في الواقع مسكونة بطيور البوم».

شعرت أنني أطلت الكلام. كان المهم أن تسمع شذا ما أقوله.

قالت يمامة: «حديثك لم يعجبني، هل ثمة أمر بينك وبين شذا»؟

«لا».

«تعال معها إذن».

«لا، سأكون وحدي، وأريد أن أمضي حياتي الباقية بهدوء هناك. رسالتي مع أسرتي انتهت، فليتابعوا حياتهم دون الاعتماد عليّ، لن أكرر حكاية أبي».

«علاء، لا تغادر زوجتك الطيبة، ولا تبتعد عن أولادك، هل تزوجت ريم»؟

«لا».

سمعت طرقاً على الباب، فتحت ريم، ودخلت أم عسّاف، أخبرتني أنها تريد شراء بيتنا لتوسيع محل الثياب المستعملة، أو أن تقوم باستئجاره لأنه ملاصق لبيتها: «العمل الحمد لله يتحرك، وأنا بحاجة إلى البيت، وخذ الإيجار الذي يؤمن لك استئجار بيت أخر وفي مكان أفضل».

قلت بنزق: «لا أريد البيع ولا غير البيع، أنت تساوميننى على مكان أمضيت فيه حياتي»؟

ارتفع صوت شذا من غرفة نومنا: «يا أم عسّاف، عيب عليك هذه المساومة، معك كل حي المزة ٨٦، معك دمشق كلها، ألم يعجبك سوى بيتنا»؟

خرجت أم عساف، وأغلقت ريم الباب وراءها بصمت.

بين يوم وليلة، تحسنت أحوال أم عسّاف في تجارة (البالة)، تأتيها نساء للشراء من الحارات المجاورة في سيارات أنيقة. تقول أم عسّاف إن أزواجهن في مواقع مهمة، وأنهن يأتين لشراء ملابس مميزة، يظهرن فيها على أنها مستوردة من باريس ولندن وروما. كل

مرة تأتي فيها إلينا، تتحدث عن سعر صرف الدولار، وأحياناً، تمسك برزمة من أوراق الدولار من حقيبة نسائية من الجلد الفاخر، وتقول لي ولشذا: «خذا ما تريدان ثمن البيت، اذهبا واشتريا بيتاً في حي آخر أفضل من هذا الحي».

وعندما نسألها لماذا لا تغادرين أنت؟

تقول: «في هذا المكان تحسنت أحوالي، وعرفه الناس، وثمة أمر آخر، في حديقة البيت الصغيرة قبر عساف، هل ترضيان أن أبيع قبر عساف»؟

بين الحين والحين، وفي وضح النهار، تتوقف أمام منزلها سيارات (جيب) بزجاج (فيميه) تنقل إليها بضاعة جديدة، ترفع صوتها عالياً مرحبة بالرجال الذين ينقلون البضاعة. لتلفت انتباه أهل الحي إلى وصول بضاعة جديدة من البالة، وأنها في موقع الحماية، أحياناً، تناديني: «أستاذ علاء، هل فكرت في أمر بيع المنزل، هي فرصة، ولن تتكرر».

كان يوم عطلة. والربيع في أوله، وثمة أيام قليلة تفصل بيننا وبين العام الجديد، رنّ الهاتف في الصالة، ردّت ريم، ثم نادتني: «أبي، هناك من يريدك»؟

أمسكت بالهاتف وسألت «من»؟

جاءني صوت خشن وحاد: «ابنك يوسف عندنا مختطف، إن أردته أن يعود إليك عليك أن تدفع خمسة ملايين ليرة». وأغلق الهاتف.

سقط جسدي على كرسي قريب، سألتني ريم: «أبي، ماذا يريد الرجل»؟

قلت: «لاشيء».

ردّت ريم: «لا، أنت تغيرت تماماً، وصوت الرجل لم يعجبني، هل يريدون منك شيئاً، هل يهددونك كما هددوا حساماً من قبل».

رغماً عني، بكيت، سألتني: «أبي أنت تبكي، قل لنا ما حدث»؟

جاءت شذا من غرفتها، وسألت: «ما الذي حدث، هل ثمة خبر عن مجد»؟

قلت: «لا».

«وماذا عن يوسف»؟

ارتفع صوتي عالياً، بعصبية مشوبة بحشرجة بكاء: «لا أدري، لا أدري».

«لماذا تبكي، بالتأكيد حصل ليوسف مكروه».

لم أجب، ارتفع صوتها مولولة: «يوسف»!

جاءت أم عسّاف، وسألت: «ماذا حدث»؟

ظلت شذا تبكي، وانهارت على صدري، «قل، ما الذي حدث»؟

قالت أم عساف: «في رأيي بعِ البيت وأنقذْ يوسف».

سليم عبود

- قاص وروائي وصحافي.

من أعماله:

١ - النصر أو الموت، وزارة الثقافة، (أدب الشباب)، (١٩٧١م).

٢ - سنديان الذاكرة، مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر، (١٩٩٨م).

٣- البيدق، دار الصفاء، بيروت، (١٩٩٩م).

٤ - النوّ، اتحاد الكتاب العرب، (٢٠٠١م).

٥ - مطر أسود ،الهيئة العامة السورية للكتاب، (٢٠١٨م).

٦ - نزيف الياسمين، اتحاد الكتاب العرب، (٢٠١٩م).

- وغيرها من أعمال روائية، إضافة إلى مقالات في الشأن العام الوطني في الدوريات الوطنية.

٢٠٢١م

كلمة الغلاف

«أما زلت تحبني؟

يضج صوت قذيفة هاون سقطت في مكان قريب.

يقول يوسف: قد تسقط القذيفة القادمة على بيتنا.

تغدو دمشق تحت غيمة سوداء وتتحرّك أسراب الحمام مفزوعة في كل الاتجاهات.

تلتحم بي شذا، أنا خائفة».

هكذا يصوّر الكاتب في رواية الشرفة حياة أسرة سورية في حي دمشقي عبر توليدية تربط لحظات العاطفة بلحظات الخوف مع رفض واعٍ لما تحدثه الحرب من تحولات سلبية في الواقع السوري.

الشرفة حكاية وطن ينزف دماء وتضحيات وأغنيات عبر حراك درامي يفتح عيوننا ومشاعرنا لنكتشف قسوة تلك الحرب التي بدأت قبل عشر سنوات ولم تنتهِ بعد، عبر سردية نجح الكاتب في تقديمها بلغة مكثفة كرذاذ ندى صباحي.